مَوَاعِظُ

الإمَام ابْن الجوزي

(ت ٥٩٧ هـ)



قامَ بجمعها

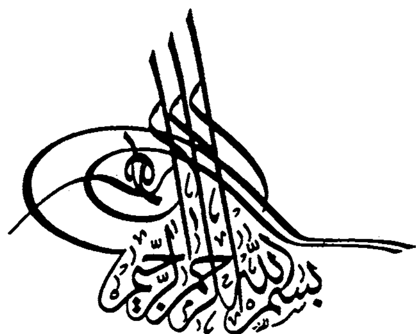
صالح أحمد الشّامي

المكتب الاسلامي

مَوَاعِظُ

الإمام ابن الجوزي

(ت ٥٩٧هـ)


بسم الله الرحمن الرحيم

معالم في التربية والدعوة

مواعظ
الإمام ابن الجوزي رحمه الله

(ت ٥٩٧ هـ)

قام بجمعها

صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب: ١١/٣٧٧١ ـ هاتف: ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

دمشق : ص.ب، ١٣٠٧٩ ـ هاتف: ١١١٦٣٧

عمّان : ص.ب: ١٨٢٠٦٥ ـ هاتف: ٤٦٥٦٦٠٥

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

وَبَعد:

يعد الإمام ابن الجوزي شيخ الوعاظ ومقدمهم في زمنه، بل إنه أحد الذين اشتهروا في هذا الميدان على مر العصور.

وكان من المستحسن أن تأخذ بعض مواعظه مكانها في هذه السلسلة «معالم في التربية والدعوة».

فهو أحد الذين نشطوا في هذا الميدان، وعالجوا أمراض الذنوب لدى الناس ووقفوا على دقائقها وما خفي منها، كما نظر في ابتعاد الناس عن آداب الإسلام وتعاليمه، وعمل قدر طاقته على توجيهها إلى الصواب.

وقد خصّ علماء الأمة وزهادها بقسط وافر من نصائحه ومواعظه، وقد يكون بعضهم أحوج من غيره إلى ذلك.

لقد اتجه بمواعظه إلى جميع شرائح المجتمع ابتداء من عامة الناس وانتهاء بالقادة والملوك. متناولاً في توجيهاته كل جوانب الحياة. كل ذلك بلغة أخّاذة تسيطر على المستمع فيلقي لها قياده لتصل به إلى الصواب ولتضعه على الطريق المستقيم.

وإني إذ أضع بين الأيدي هذه الباقة المختارة من مواعظ هذا الإمام، فإني أرجو الله سبحانه أن ينفعنا بها، وبما نسمع من علمائنا وأئمتنا، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

غرة ربيع الآخر سنة ١٤٢٢هـ
٢٢/٦/٢٠٠١م

كتبه

صالح أحمد الشامي

ترجمة ابن الجوزي

هو أبو الفرج، عبد الرحمٰن بن علي بن محمد بن علي القرشي التيمي البكري.

الفقيه الحنبلي، الواعظ المفسر الحافظ، الأديب.. الملقب بـ «جمال الدين».

اشتهر بابن الجوزي نسبة إلى أحد أجداده الذي عرف: بالجوزي، بجوزة كانت في داره، لم يكن بواسط جوزة سواها.

ولد ببغداد حوالي سنة (٥١١هـ) وتوفي والده سنة (٥١٤هـ).

وفي ظلال حلقات العلم نشأ وترعرع، فحفظ القرآن وهو صغير، وكانت أول سماعاته سنة (٥١٦هـ).

كان واسع الإطلاع، عظيم العلم، له معرفة وسبق في كل باب من أبواب العلم، وفي كل فرع من فروع المعرفة.

كتب وصنف في كثير من فنون العلم، حتى وصل

عدد مؤلفاته ـ كما ذكرها عبد الحميد العلوجي في كتابه «مؤلفات ابن الجوزي» ـ إلى (٥٧٤) مؤلَفاً بما فيه المكرر.

وقد كان واعظاً مؤثراً، وينقل لنا صورة من مجالس وعظه فيقول:

«إنه لا يخلو لي مجلس من خلق لا يحصون، يبكون ويندبون على ذنوبهم، ويقوم في الغالب جماعة يتوبون، ويقطعون شعور الصبا.. وربما اتفق خمسون ومائة. ولقد تاب عندي في بعض الأيام أكثر من مائة»[١].

كما يتحدث عن آثار وعظه في الناس فيقول:

«ولقد تاب على يدي في مجلس الذكر أكثر من مائتي ألف، وأسلم على يدي أكثر من مائتي نفس.

وكم سالت عين متجبر بوعظي لم تكن تسيل».

على أنه حين يذكر ذلك لا يذكره من باب الإعجاب بالنفس، وإنما من باب التحدث بنعم الله، وهو لا يخفي خوفه من ذلك فيقول:

«وربما لاحت أسباب الخوف بنظري إلى تقصيري وزللي.

ولقد جلست يوماً، فرأيت حولي أكثر من عشرة

---

(١) صيد الخاطر، ص٤٧.

آلاف، ما فيهم إلا من قد رقَّ قلبه، أو دمعت عينه.

فقلت لنفسي: كيف بك إذا نجوا وهلكتِ، فصحتُ بلسان وجدي: إلٰهي وسيدي، إن قضيت عليّ بالعذاب غداً، فلا تعلمهم بعذابي، صيانة لكرمك لا لأجلي، لئلا يقولوا: عذَّب من دلّ عليه.

إلٰهي فاحفظ حسن عقائدهم فيَّ بكرمك أن تعلمهم بعذاب الدليل عليك»(١).

قال سبطه أبو المظفر: «سمعت جدي يقول على المنبر: كتبت بأصبعي ألفي مجلد.. قال: وكان يختم في كل أسبوع ختمة، ولا يخرج من بيته إلا إلى الجمعة أو المجلس...».

وقد كان حريصاً على وقته، يضن به أن يذهب بغير فائدة، وقد كثرت مواعظه في هذا الصدد، فما زال ينصح الناس بالحرص على أوقاتهم وتصريفها فيما يعود عليهم بالنفع في دنياهم وآخرتهم.

ومما يبين لنا مدى هذا الحرص، أنه كان يعد للوقت الذي يزوره الناس فيه من الأعمال ما يشغل به الوقت. قال:

«ثم أعددت أعمالاً لا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم

---

(١) صيد الخاطر، ص٢١٧.

لئلا يمضي الزمان فارغاً. فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد وبري الأقلام، وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لا بد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي».

وقال سبطه بشأن وفاته:

«جلس جدي يوم السبت سابع شهر رمضان ـ يعني سنة سبع وتسعين وخمسمائة ـ تحت تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرخي، وكنت حاضراً، فأنشد أبياتاً قطع عليها المجلس، ثم نزل عن المنبر فمرض خمسة أيام، وتوفي ليلة الجمعة بين العشاءين في داره، وعمره نحو التسعين، وغسل وقت السحر، واجتمع أهل بغداد وغلقت الأسواق، وحملت جنازته على رؤوس الناس، وكان الجمع كثيراً جداً، وكان في شهر تموز، فأفطر بعض من حضر لشدة الحر وكثرة الزحام، ما وصل حفرته إلا وقت صلاة الجمعة والمؤذن يقول: الله أكبر، ودفن بباب حرب بالقرب من مدفن أحمد بن حنبل رضي الله عنه، وترك من الأولاد ثلاثة ذكور وثلاث إناث. تغمده الله برحمته ونفع المسلمين بعلومه وجعل أجر ذلك في صحيفة أعماله».

رحم الله ابن الجوزي جزاء ما قدم للإسلام والمسلمين.. فقد كان مجدد عصره.

شهـادَات

ولبيان مكانة الإمام ابن الجوزي، يحسن بنا أن نذكر بعض الشهادات التي قيلت في حقه من علماء هذه الأمة، رحمهم الله جميعاً.

قال الذهبي:

«كان مبرزاً في التفسير والوعظ والتاريخ، ومتوسطاً في المذهب، وله في الحديث اطلاع تام على متونه، وأما الكلام على صحيحه وسقيمه فما له فيه ذوق المحدثين ولا نقد الحفاظ المبرزين».

وقال:

«لا يوصف ابن الجوزي بالحفظ عندنا باعتبار الصنعة، بل باعتبار كثرة اطلاعه وجمعه».

وقال بشأن وعظه:

«كان رأساً في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق، والنثر الفائق بديهاً، ويسهب ويعجب، ويطرب ويطنب، لم يأت قبله ولا بعده مثله، فهو حامل لواء

الوعظ والقيم بفنونه. مع الشكل الحسن، والصوت الطيب، والوقع في النفوس، وحسن السيرة».

وقال موفق الدين ابن قدامة:

«إمام أهل عصره في الوعظ».

وقال ابن خلكان:

«كان علّامة عصره، وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ، صنّف في فنون كثيرة».

وقال ابن كثير:

«تفرد ابن الجوزي بفن الوعظ، الذي لم يسبق إليه ولا يلحق شأوه فيه، وفي طريقته وشكله، وفي فصاحته وبلاغته وعذوبته وحلاوة ترصيعه، ونفوذ وعظه، وغوصه على المعاني البديعة، وتقريبه الأشياء الغريبة بما يشاهده من الأمور الحسية، بعبارة وجيزة، سريعة الفهم والإدراك، بحيث يجمع المعاني الكثيرة في الكلمة اليسيرة».

وقال ابن الدبيثي:

«كان من أحسن الناس كلاماً، وأتمهم نظاماً، وأعذبهم لساناً، وأجودهم بياناً، بورك في عمره وعمله، فروى الكثير، وسمع الناس منه أكثر من أربعين سنة، وحدّث بمصنفاته مراراً».

وقال الموفق عبد اللطيف:

«له في كل علم مشاركة، ولكنه كان في التفسير من الأعيان، وفي الحديث من الحفاظ، وفي التاريخ من المتوسعين، ولديه فقه كافٍ، وأما السجع الوعظي فله فيه ملكة قوية».

مكانة الوعظ عند ابن الجوزي

الوعظ ـ في رأي ابن الجوزي ـ ليس نافلة من النوافل، يمكن الاستغناء عنها، بل هو ضرورة من الضرورات، لأن المهمة الملقاة عليه لا يستطيع غيره أن يقوم بها.

فللفقيه دوره في الإصلاح.

وللمحدّث دوره في الإصلاح.

وللواعظ أيضاً دوره.. في إصلاح القلوب.

وفي هذا الصدد يقول ابن الجوزي.

«رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب إلا أن يمزج بالرقائق، والنظر في سِيَر السلف الصالحين:

ـ لأنهم تناولوا مقصود النقل.

ـ وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها.

وما أخبرتك بهذا إلا بعد معالجة وذوق، لأني وجدت:

- جمهور المحدِّثين وطلاب الحديث، همة أحدهم في الحديث العالي، وتكثير الأجزاء.

- وجمهور الفقهاء في علوم الجدل، وما يغلب به الخصم.

وكيف يرقُّ القلب مع هذه الأشياء؟

وقد كان جماعة من السلف، يقصدون العبد الصالح، للنظر إلى سَمْتِهِ وهَدْيه، لا لاُقتباس علمه.

وذلك أن ثمرة علمه: هديُه وسمته.

فافهم هذا، وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سِيَر السلف والزهاد في الدنيا، ليكون سبباً لرقة قلبك»[(١)].

---

(١) صيد الخاطر، ص٢٠٠، طبعة دار كاتب وكتاب.

ابن الجوزي يَصِفُ وَعْظَهُ بنَفسِهِ

كان ابن الجوزي يعرف المكانة التي وصل إليها في ميدان الوعظ، وامتلاكه لناصية الكلمة، ومدى تأثيره على القلوب، وهذا ما دفعه إلى وصف «كلامه ووعظه» إذْ هو الأقدر على ذلك من غيره، فيقول:

كلامي نهر يأخذ من بحر الكتاب والسنة.

يسقي قلوبكم سيحا[1] بلا كلف.

وقد قنع من الخراج بالدعاء.

هل في مجلسي نقص؟ فيقال: لو أنه!

أو عيب، فيقال: إلا أنه!

أو رأيتم مثله؟ فيقال: كأنه!

أبلغ بُلفظي منزل المعنى وما طال سفر العبارة.

---

(١) سيحاً: يقال: ساح الماء يسيح سيحاً، إذا جرى على وجه الأرض.

المعاني واسعة الفيافي، والألفاظ ضيقة العراص[1].

وما يقدر على حشو العرصة فوق ما تسع إلا مهندس لآلي[2].

هذه المعاني لطاف، فأي سلكٍ فهم دقَّ انتظمت فيه، وإنما ينظم اللؤلؤ في خيط لا في حبل.

كلامي ثوب، فُصِّل على قدر أسماعكم، فهو لا يصلح إلا لكم.

لا تنكروا مدحي لأهل بغداد، فهم هم.

ألهذا البلد بدل؟

إذا مرضت الأفهام السليمة من وباء طعام العبارات الركيكة، عمل لفظي في شفائها، ولا رقى الهند.

كَلِمٌ، تداوي كل كَلْم[3].

جواهر كلها يتيم
توجد مفقودة المثال[4]

---

(١) العِراص: جمع عَرْصَة، كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء.

(٢) لآلي: اللآلي: اللؤلؤ.

(٣) كلْم: الكلم: الجرح.

(٤) المدهش، ص٥١٨.

محاور الوعظ عند ابن الجوزي

إذا كانت مهمة الطبيب معالجة الأمراض ووصف الأدوية التي توصل إلى البرء وتمام الصحة، فإن مهمة العالم في الأمة هي معالجة الانحراف عن صراط الله تعالى، وبيان أخطار ذلك، والعمل على الأخذ بالأيدي على طريق الاستقامة.

ومن هنا كان معظم محاور الوعظ مشتركة عند العلماء، لكن طبيعة المجتمع التي قد تختلف من مكان إلى آخر، وتنوع الانحرافات، تجعل العالم يصرف اهتمامه لمعالجة الأخطار الأشد، مراعياً في ذلك سلم الأولويات.

وعندما نقف أمام نماذج متعددة من مواعظ الإمام ابن الجوزي تبرز لنا محاور كثيرة، لعل من أهمها:

١ ـ التزام الكتاب والسنة:

الدعوة إلى التزام الكتاب والسنة، هي المهمة الأولى التي ينبغي أن يضعها كل مصلح نصب عينيه،

وابن الجوزي واحد من هؤلاء العلماء الذين عملوا كل جهدهم في دعوة الناس إلى هذا الأمر.

«فالجادة السليمة والطريق القويمة، إنما هي الاقتداء بصاحب الشرع».

وهو يتأسف لما آل إليه أمر أكثر الناس من البعد عن ذلك فيقول:

«من عرف الشرع كما ينبغي، وعلم حالة الرسول ﷺ وأحوال الصحابة وأكابر العلماء، علم أن أكثر الناس على غير الجادة».

فالمقياس الذي تعرف به الاستقامة، كما يعرف به الانحراف، هو الكتاب والسنة ولذا فهو يكرر الدعوة إلى الاقتداء بالرسول ﷺ واتباع سنته.

ولهذا فإن ابن الجوزي، ومن أجل هذه الغاية، يضبط مواعظه بهذا الإطار ويقول كما رأينا في بيان خطة وعظه: «كلامي نهر يأخذ من بحر الكتاب والسنة».

٢ ـ الاهتمام بالحياة الآخرة:

شغلت قضية التذكير بأمر الآخرة حيزاً كبيراً من مواعظ ابن الجوزي، ولعل دافعه إلى ذلك ما رآه في مجتمعه من الانكباب على أمور الدنيا، ونسيان

الآخرة، خلافاً لما دعت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: ٧٧].

ولذا فهو كثير التذكير بالموت وما بعد الموت، ليوقظ بذلك الغافلين ويذكر الناسين، ويحذر المذنبين.

٣ ـ بيان قيمة الوقت:

وهذه قضية ذات ارتباط كبير بالتي قبلها، فحياة الإنسان هي رأس ماله، وهي الأيام التي تمر به، أو يمر بها، فلا بد في سبيل النجاة من استغلالها في الخير الذي يكون سبب السعادة في الآخرة. وكل لحظة تُقضىٰ في غير هذا السبيل فهي خسارة وضياع.

فالزمان أشرف من أن يضيع منه لحظة، ففي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (من قال سبحان الله العظيم وبحمده، غرست له بها نخلة في الجنة) فكيف تسمح للإنسان نفسه أن يفرط بهذا الربح العظيم..

بهذا الأسلوب وبغيره يبين قيمة الزمن، ويدعو إلى الحفاظ عليه، وما دعوته إلى العزلة في كثير من مواعظه إلا بغية الضنِّ بالوقت أن يضيع فيما لا يعود على الإنسان نفعه في آخرته.

٤ ـ انحراف العلماء والزهاد:

كثيرة هي المواعظ التي عالج فيها الإمام هذا الموضوع. فانحراف العلماء في غالبه ناشئ عن حب الدنيا، وعدم تطبيق معطيات العلم، وإنما يكون العلم للعمل، فإذا لم يكن كذلك كان حجة على الإنسان.

وأما الزهاد فسبب انحرافهم في الغالب، هو الجهل، فلا بد لمن أراد سلوك طريق الزهد من العيش في ظلال العلم أولاً.

وهو ينصح العلماء بكسب المال من طرقه المشروعة.. وذلك للاستغناء عن الناس، ويضرب الأمثلة بالصحابة في سعيهم لكسب ما يقوم بسداد حاجاتهم.

٥ ـ معالجة الواقع:

كثيراً ما يبدأ ابن الجوزي موعظته، أو خاطرته، أو حديثه، بقوله: «رأيتُ» أو «نظرتُ» أو «تأملتُ».

ثم يعرض الواقعة التي رآها، أو الحادثة التي دعته إلى التأمل للبحث عن أسبابها.. وهو بهذا يشخِّص المرض. ليخلص بعد ذلك إلى موعظته التي تحمل الدواء الناجع.

وهذه النظرات والتأملات تصف لنا الواقع الذي كان يعيشه ابن الجوزي، وهي ذات قيمة كبيرة لمن أراد دراسةَ تلك الفترة من الزمن، وتصوّرَ الواقع الاجتماعي يومئذٍ.

وهي من الكثرة بحيث لو جُمِعت، لكانت مرجعاً لدارس الأمراض الاجتماعية يومئذٍ.

والذي يهمنا لفت النظر إليه أن ابن الجوزي لم تكن مواعظه لمجرد ترقيق القلوب وتليينها، ولكن لمعالجة أمراض مستقرة، أو نزلات وافدة، وهي مقدمة في سلم الأولويات على ذكر الرقائق..

وهكذا كان ابن الجوزي واعياً لمهمة العالِم في مجتمعه، ودوره العظيم في قيادته إلى الطريق السوي.

وهذا ما يفسر لنا نفاذه إلى القلوب، والأخذ بمجامعها، الأمر الذي جعل مجالس وعظه مجالس توبة ورجوع إلى الله تعالى، وما ذلك إلا لأنه كان قادراً على وضع يده على الألم في جسم الأمة..

٦ ـ ذم الدنيا:

يفصِّل ابن الجوزي الأمر في ذم الدنيا،

فهي لا تذم لذاتها، فهي قرار للخلق، تخرج منها

أقواتهم، ويدفن فيها أمواتهم وكل ما عليها فإنما هو لمصلحة الآدمي، وفيه حفظ لبقائه.

وهي مكان لطاعة الله تعالى ومعرفته.

وما كان كذلك يمدح ولا يذم

وإنما الذم لأفعال الجاهل أو العاصي في الدنيا.

٧ ـ العناية بالأموال:

على الرغم من التحذير المتكرر من الانغماس في الدنيا، والذي يشغل حيزاً كبيراً من مواعظ ابن الجوزي، فإنه يدعو إلى حيازة الأموال والعمل على تحصيلها بالقدر الذي يغني الإنسان عن احتياج الآخرين.

ويخص بدعوته هذه العلماء والزهاد.

أما العلماء فهم بحاجة إلى حيازة المال ومن طريق العمل.. حتى لا يكونوا في مواقف الذل أمام السلطان.

وأما الزهاد، فهم بحاجة إلى ما يغنيهم عن حاجة الغير حتى لا يضطروا إلى مواقف الذل عندما يعطف عليهم الناس.

واسمع إلى قوله في ذلك: «اجتهاد العاقل فيما

يصلحه لازم بمقتضى العقل والشرع، فمن ذلك حفظ ماله..».

وقال: «ليس في الدنيا أنفع للعلماء من جمع المال للاستغناء عن الناس..».

وقال: «فعليك يا طالب العلم بالاجتهاد في جمع المال للغنى عن الناس، فإنه يجمع لك دينك..».

على أن هذه العناية لا ينبغي أن تجاوز الحد، بحيث يصبح جمع المال هو الغاية والهدف،

وإذن فالعناية بالمال من غاياتها الحفاظ على كرامة المسلم، وبخاصة العلماء الذين هم في موضع العطاء في جوانب المعاني والأخلاق والتعليم، فلا يصح لهم أن يكونوا في جانب الأخذ في الطرف الآخر.

٨ ـ العناية بالقلب:

وللجانب الروحي الحظ الأوفى في مواعظه.

فالدعوة إلى التقوى والحض على التوبة، والعمل على محاسبة النفس، والتيقظ للغفلة، والبعد عن العجب، ومداومة الذكر، والشكر على الهداية، والمراقبة في الخلوات، والإخلاص في العمل، وإصلاح النيات، والتفكر، والاعتبار، وغير ذلك..

كل ذلك مما وفاه الإمام حقه، وجلَّاه بعبارته الصافية وأسلوبه الرصين.

تلك هي بعض محاور الوعظ عند ابن الجوزي أكتفي بذكرها، وأترك للقارئ الكريم التعرف على المحاور الأخرى من خلال المواعظ المطروحة بين يديه.

هذه المواعظ

يُعَد ابن الجوزي من الوعاظ المشهورين في العالم الإسلامي، بل لعله أشهرهم، ومما يدل على ذلك كثرة كتبه التي ألفها في هذا الباب، والتي تعد بالعشرات، طبع بعضها وبعضها الآخر ما زال في مكتبات المخطوطات أو في عداد المفقود.

وأستطيع القول بأن ما دوَّنه ابن الجوزي في هذا الباب، إنما هو صدى لمجالسه الوعظية المشهورة.

وتعد القصة والخبر عنصراً أصيلاً في بناء هذه المواعظ، كما يعد السجع حليتها التي كانت تأخذ بالأسماع، وكان لابن الجوزي قدرة عجيبة في إظهار المعنى بالصياغة التي يرتضيها.

وكنت قد عملت على إخراج سلسلة من مواعظ أعلام هذه الأمة الخيرة، وكان لا بد لمواعظ ابن الجوزي أن تأخذ مكانها في هذا المشروع.

وكنت أتوقع سهولة العمل في إخراج هذا الموضوع

لما ذكرت من كثرة كتب المواعظ لهذا الإمام.. ولكن الأمر لم يكن كذلك.

ذلك أن سلسلة «معالم في التربية والدعوة» ليس من وسائلها عرض القصص والأخبار إلا بقدر محدود. كما أنها تعتمد التنوع في معالجة الموضوعات الاجتماعية، وتستبعد التقسيم المنطقي..

ولهذه المعاني وغيرها لم أستطع ـ مثلاً ـ اختيار موعظة واحدة من كتاب «ذم الهوى» وهو يقع في مجلد.

واستطعت بعد جهد اختيار عدة مواعظ لا تتجاوز عدد أصابع اليد من كتاب «بستان الواعظين» وهو في مجلد أيضاً. علماً بأن عنوانه يوحي بأنه كله في مجال الموضوع محل البحث.. وكذلك كتاب «التبصرة»، وهو في مجلدين..

وهكذا في كتب أخرى.

على أن المواعظ التي تم اختيارها، ووضعت في هذا الكتاب، خضع معظمها إلى الاختصار إن كانت طويلة، أو حذف المعنى المكرر حيث وجد ذلك. أو كانت اقتطافاً لزهرة مختارة من عدة زهرات في نبتة واحدة.

وكل ذلك مع المحافظة على لفظ المؤلف، والتركيز على المعنى الذي قصد إليه.

وأرجو أن أكون قد وفقت لما قصدت إليه. والحمد لله رب العالمين.

مَواعِظ

الإمَام ابن الجوزي

الاقتداء بصاحب الشرع

قال أبو الفرج:

الجادة السليمة، والطريق القويمة، الاقتداءُ بصاحب الشرع، والبدار إلى الاستنان به. فهو الكامل الذي لا نقص فيه.

فإن خلقاً كثيراً انحرفوا إلى جادة الزهد، وحملوا أنفسهم فوق الجهد، فأفاقوا في أواخر العمر، والبدن قد نهك، وفاتت أمور مهمة من العلم وغيره.

وإن أقواماً انحرفوا إلى صورة العلم، فبالغوا في طلبه، فأفاقوا في أواخر قَدَم، وقد فاتهم العمل به.

فطريق المصطفى ﷺ: العلم والعمل، والتلطف بالبدن.

وقد أوصى عبد الله بن عمرو بن العاص فقال له: (إن لجسدك عليك حقا[1])[2].

---

(١) رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩).

(٢) صيد الخاطر، ص٢٠٥، تحقيق محمد عبد الرحمٰن عوض، دار كاتب وكتاب، بيروت.

بين العادة والعبادة

قال أبو الفرج:

تأملت على أكثر الناس عباداتهم، فإذا هي عادات.

فأما أرباب اليقظة فعاداتهم عبادة حقيقية.

فإن الغافل يقول: سبحان الله، عادة.

والمتيقظ لا يزال فكره في عجائب المخلوقات، أو في عظمة الخالق، فيحركه الفكر في ذلك فيقول: سبحان الله.

فكان هذا التسبيح ثمرة الفكر، فهذا تسبيح المتيقظين.

وما تزال أفكارهم تجول، فتقع عباداتهم بالتسبيحات محققة.

وكذلك يتفكرون في قبائح ذنوب قد تقدمت، فيوجب ذلك: الفكر وقلق القلب وندم النفس، فيثمر ذلك أن يقول قائلهم: استغفر الله.

فهذا هو التسبيح والاستغفار.

فأما الغافلون فيقولون ذلك عادة.

وشتان ما بين الفريقين[1].

التعوذ بالله من الشيطان

قال أبو الفرج:

اعلموا ـ عباد الله ـ أن من استعاذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم، فقد عمل بالقرآن الحكيم.

وذلك أن الله تبارك وتعالى أمره بالاستعاذة من اللعين إبليس في آي كثيرة من القرآن.

فمن استعاذ بالملك الوهاب، من شر الشيطان الكذاب، فقد عمل بالسنة وأحكام الكتاب.

والقرآن شافع لمن عمل به[2].

مناجاة

قال أبو الفرج:

إلٰهي.

ما أكثر المعرض عنك، والمعترض عليك، وما أقل المعترضين لك.

---

(١) صيد الخاطر، ص٣٥٢.

(٢) بستان الواعظين، ص٣٠، دار الكتاب العربي، راجعه السيد الجميلي.

يا روح القلوب، أين طلابك؟
يا نور السماوات، أين أحبابك؟
يا رب الأرباب، أين عبَّادك؟
يا مسبب الأسباب، أين قصَّادك؟
من الذي عاملك بلبه فلم يربح؟
من الذي جاءك بكربه، فلم يفرح؟
أي صدرٍ صدرَ عن بابك، ولم يشرح؟
من ذا الذي لاذ بحبلك، فاشتهى أن يبرح؟
يا معرضاً عنه، إلى من أعرضت؟
يا مشغولاً بغيره، بمن تعوضت؟[1].

مجالس الوعظ بين الأمس واليوم

قال أبو الفرج:

كان جماعة من السلف يرون تخليط القصاص، فينهون عن الحضور عندهم. وهذا على الإطلاق لا يحسن اليوم.

لأن الناس كانوا في ذلك الزمان متشاغلين بالعلم فرأوا حضور العلم صاداً لهم، واليوم كثر الإعراض

---

(١) المدهش، ص٤١٩، دار الجيل، بيروت.

عن العلم، فأنفع ما للعامي مجلس الوعظ، يرده عن ذنب، ويحركه إلى توبة.

وإنما الخلل في القاص، فليتق الله عزّ وجلّ[1].

عجباً لك

قال أبو الفرج:

عجباً لك!!

لا الدهر يعظك، ولا الحوادث تنذرك.

والساعات تعد عليك، والأفعال تعد منك.

وأحب أمريك إليك، أعودهما بالضرر عليك[2].

الاعتبار بمن رحل

قال أبو الفرج:

ألا يعتبر المقيم منكم بمن رحل؟

ألا يندم من يعلم عواقب الكسل؟

آه لغافل، كلما جدَّ الموت هزل.

ولعاقل كلما صعد العمر نزل[3].

---

(١) صيد الخاطر، ص١٠٠.

(٢) المدهش، ص٢٦١.

(٣) المدهش، ص٢٩١.

بين العقل والهوى

قال أبو الفرج:

يا هذا، عقلك يحثك على التوبة، وهواك يمنع، والحرب بينهما.

فلو جهزت جيش عزم، فرَّ العدو.

تنوي قيام الليل، فتنام.

وتحضر المجلس، فلا تبكي، ثم تقول ما السبب ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

عصيت بالنهار، فنمت بالليل.

أكلت الحرام، فأظلم قلبك.

فلما فتح باب الوصول للمقبولين، طردت.

ويحك! فكر القلب في المباحات يحدث له ظلمة، فكيف في تدبير الحرام؟

إذا غيّر المسك الماء، منع من التوضؤ، فكيف بالنجاسة.

متى تنتبه من رقاد الغفلة؟[١].

---

(١) المدهش، ص٣٦٥.

الإيمان الصحيح

قال أبو الفرج:

ليس المؤمن بالذي يؤدي فرائض العبادات صورة، ويتجنب المحظورات فحسب.

إنما المؤمن، هو الكامل الإيمان:

لا يختلج في قلبه اعتراض.

ولا يساكن نفسه فيما يجري وسوسه.

وكلما اشتد البلاء عليه، زاد إيمانه وقوي تسليمه.

وقد يدعو فلا يرى للإجابة أثراً.

وسرّه لا يتغير، لأنه يعلم أنه مملوك، وله مالك يتصرف بمقتضى إرادته.

فإن اختلج في قلبه اعتراض، خرج من مقام العبودية إلى مقام المناظرة، كما جرى لإبليس.

والإيمان يبين أثره عند قوة البلاء.

فقد يرى مثل يحيى بن زكريا يتسلَّط عليه فاجرٌ فيأمر بذبحه، فيُذْبح.

وكذلك كل تسلُّط من الكفار على الأنبياء والمؤمنين، وما وقع ردٌّ عنهم.

فإن هجسَ بالفكر: أن القدرة[1] تعجز عن الرد عنهم، كان ذلك كفراً.

وإنْ علمَ أنَّ القدرةَ متمكنة منَ الرَّد، وما ردَّت.

وأنَّ اللهَ قد يُجيعُ المؤمنين، ويُشبع الكفارَ.

ويعافي العصاةَ، ويُمرِض المتقين.

لم يبقَ إلا التسليمُ للمالك.

فهناك يَبِين معنى قوله: ﴿وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [البينة: ٨].

وهاهنا يظهر قَدْر قوةِ الإيمان، لا في ركعات.

قال الحسن البصري: استوى الناس في العافية، فإذا نزل البلاء تباينوا[2].

الطهارة الحقة

قال أبو الفرج:

يا هذا، إذا توضأتَ بغير نية، قيل للماء: ابذلْ له البَلل، لا الطهارة.

فإذا نويتَ، قيل له: طهارةَ الظاهر.

فإذا صفا قلبك، فقد حصلتْ طهارتُك حقيقة[3].

---

(١) أي قدرة الله تعالى.

(٢) صيد الخاطر، ص٢٤٥-٢٤٦، والمراد: تباينوا في الرضى بالقدر.

(٣) التبصرة ٢/ ٢٢١.

المقصود بالصلاة

قال أبو الفرج:

اعلم أن المقصود بالصلاة: إنما هو تعظيم المعبود.

وتعظيمه لا يكون إلا بحضور القلب في الخدمة.

وقد كان في السلف من يتغير إذا حضرت الصلاة، ويقول: أترون بين يدي من أريد أن أقف.

فإذا أردت استجلاب حضور قلبك الغائب، ففرغه من الشواغل مهما استطعت.

وقد كان أرباب التفكر من السلف، يشاهدون في كل شيء عبرة:

فيذكرون بالأذان نداء العرض.

وبطهارة البدن، تطهير القلب.

وبستر العورة، طلب ستر القبائح من عيوب الباطن.

وباستقبال القبلة صرف القلب إلى المقلِّب.

فمن لم تكن صلاته هكذا، فقلبه غافل[1].

إنما أنت بشر

قال أبو الفرج «في التبصرة»:

اتـركَ الـشـرَّ ولا تـأنـسْ بـشـر
وتـواضـع إنـمـا أنـت بـشـر

---

(١) التبصرة ٢/ ٢٣٥.

هـذه الأجـسـام تُـرْب هـامـد
فـمـن الـجـهـل افـتـخـار وأشـر
فـعـجـيـب فَـرَحُ الـنـفـسِ إذا
شاع في الأرض ثناها وانتشر
مـسـتـشـار خـائـن فـي نـصـحـه
وأمـيـن نـاصـح لـم يـسـتـشـر
فـافـعـل الـخـيـر وأمِّـل غِـبَّـه
فـهـو الـذُّخـر إذا الله حـشـر(١)

نعمة السلامة والإمهال

قال أبو الفرج:

اسمعوا يا معشر الأصحاء، اغتنموا نعمتي السلامة والإمهال، واحذروا خديعة المنى والآمال، فقد جربتم على النفس تبذيرها في بضاعة العمر، فانتبهوا لحفظ الباقي ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥].

أيام العمر معدودة، وسيفنى العَدَد، وطريق صعبة على قلة العُدَد.

أتراك تظن أنك تبقى إلى الأبد؟

أما يعتبر بالوالد الولد؟

---

(١) التبصرة ١/ ١٨٤.

أفلا ينتبه من رقدته من رقد؟![1].

وقوف على أطلال سِيَرِ السلف

قال أبو الفرج:

يا منازل الأحباب أين ساكنوك؟

يا بقاع الإخلاص أين قاطنوك؟

يا مواطن الأبرار أين عامروك؟

يا مواضع التهجد أين زائروك؟

خلت والله الديار، وباد القوم.

وارتحل أرباب السهر وبقي أهل النوم.

واستبدل الزمان أكل الشهوات بالصوم.

كفى حزناً بالواله الصب أن يرى
منازل من يهوى معطلة قفرا[2]

الطبع يسرق

قال أبو الفرج:

ما رأيت أكثر أذىً للمؤمن من مخالطة من لا يصلح.

---

(١) المواعظ والمجالس، ص١٥٤، تحقيق: محمد إبراهيم سنبل، دار الصحابة للتراث بطنطا.

(٢) اليواقيت الجوزية في المواعظ النبوية، ص٢٩، تحقيق: السيد بن عبد المقصود، مؤسسة الكتب الثقافية.

فإن الطبع يسرق.
فإن لم يتشبه بهم، ولم يسرق منهم، فتر عن عمله.
وإن رؤية الدنيا تحث على طلبها.
وقد رأى رسول الله ﷺ ستراً على بابه فهتكه وقال: (ما لي وللدنيا)[1] وكذلك رؤية أرباب الدنيا ودورهم وأحوالهم[2].

احذر كلمة الاعتراض

قال أبو الفرج:
ملاحظة من أهم الأشياء:
ينبغي لمن آمن بالله تعالى أن يسلِّم له في أفعاله.
ويعلم أنه حكيم مالك، وأنه لا يعبث.
فإن خفيت عليه حكمة فعله نسب الجهل إلى نفسه، وسلَّم للحكيم المالك.
فإذا طالبه العقل، قال: ما بانت لي فيجب عليَّ تسليم الأمر لمالكه.
وإن أقواماً نظروا بمجرد العقل إلى كثير من أفعال الحق سبحانه، فرأوها لو صدرت من مخلوق، نُسِب

(١) رواه البخاري (٢٦١٣).
(٢) صيد الخاطر، ص٣٦٣.

إلى ضد الحكمة، فنسبوا الخالق إلى ذلك.

وهذا: الكفر المحض، والجنون البارد.

والواجب: نسبة الجهل إلى النفوس، فإن العقول قاصرة عن مطالعة حكمته.

وأول من فعل ذلك إبليس، فإنه رآه قد فضل طيناً على نار، والعقل يرى النار أفضل، فعاب حكمته.

وعمت هذه المحنة خلقاً ممن ينسب إلى العلم، وكثيراً من العوام.

فكم عامي يقول: فلان قد ابتلي وما يستحق!

ومعناه: أنه قد فُعِل به ما لا يليق بالصواب.. وهو كفر محض.

فسلِّم تسلم.

واحذر كلمة اعتراض أو إضمار، فربما أخرجتك من دائرة الإسلام[1].

العناية بالنفس

قال أبو الفرج:

قال العقل:

---

(١) صيد الخاطر، ص٤٠٧.

إنما خلق هذا البدن ليحمل النفس، كما تحمل الناقة الراكب.

ولا بدَّ من التلطف بالناقة ليحصل المقصود من السَّيْر، ولا يحسن في العقل دوام السهر، وطول القلق، لأنه يؤثر في البدن فيفوت أكثر المقصود.

كيف وقد خلق بدن الآدمي خلقاً لطيفاً.

فلا بدَّ من التلطف به بتناول ما يصلحه، وبالقلب بما يدفع الحزن المؤذي له.

وإلا فمتى دام المؤذي عجل التلف.

ثم يأتي الشرع بما قد قاله العقل، فيقول:

(إن لنفسك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، فصم وأفطر، وقم ونم)[1].

ويقول: (كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت)[2].

ومن أراد مصداق ما قلته، فليتأمل حالة الرسول ﷺ.

فإنه كان يعدِّل ما عنده من الخوف، فيمازح، ويسابق عائشة، ويكثر من التزوج، وكان يتلطف ببدنه،

---

(١) رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩).

(٢) أخرجه في المستدرك ١/ ٤١٥.

فيختار الماء البائت، ويحب الحلوى واللحم[1].

قبل الرحيل

قال أبو الفرج:

إخواني:

فتشوا أحمال الأعمال قبل الرحيل ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

يا مطلقي النواظر، في مُحَرَّمِ المنظور ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾ [التكاثر].

لا يغرنكم إمهال العصاة ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [الغاشية].

يا من عاهدناه من يوم ﴿أَلَسْتُ﴾ [الأعراف: ١٧٢] لا تحلنَّ عقد العهد بأنامل الزلل، فما يليق بشرف قدرك خيانة[2].

إياك وطول الأمل

قال أبو الفرج:

يجب على من لا يدري متى يبغته الموت أن يكون مستعداً.

---

(١) صيد الخاطر، ص٢٥٢.

(٢) المدهش، ص٣٥٣.

ولا يغترر بالشباب والصحة، فإن أقل من يموت الأشياخ، وأكثر من يموت الشبان، ولهذا يندر من يكبر.

ومن الاغترار: طول الأمل، وما من آفة أعظم منه.

فإنه لولا طول الأمل، ما وقع إهمال أصلاً.

وإنما تقدَّم المعاصي وتؤخَّر التوبة لطول الأمل، وتُبادَر الشهوات وتُنسى الإنابة لطول الأمل.

فلا تمسِ حتى تنظر فيما مضى من يومك، فإن رأيت زلة فامحها بتوبة، أو خرقاً فارقعه باستغفار.

وإذا أصبحت فتأمل ما مضى من ليلك.

وإياك والتسويف، فإنه أكبر جنود إبليس.

ولا تخلِ نفسك من موعظة تسمعها، وفكرة تحادثها بها.

فالبدار البدار..[1]

دموع التوبة

قال أبو الفرج:

الواجب على العاقل أن يحذر مغبَّة المعاصي، فإن نارها تحت الرماد.

---

(١) صيد الخاطر ص١٨٠.

وربما تأخرت العقوبة ثم فجأت.

وربما جاءت مستعجلة.

فليبادر بإطفاء ما أوقد من نيران الذنوب، ولا ماء يطفئ تلك النار إلا ما كان من عين العين.

لعل خصم الجزاء يرضى قبل أن يبتَّ الحاكم في حكمه[1].

مشاورة العقل أولاً

قال أبو الفرج:

من فعل ما يحب لقي ما يكره.

ومن صبر على ما يكره نال ما يحب.

لا تقطع مشاورة العقل قبل مشاورة الهوى، فإن المستبد برأيه واقف على مداحض الزلل.

لم تزل أكف العقل ضابطة أعنة النفوس، غير أن العزم ينقلب.

ركوب الأخطار يسوق الأقدار.

من قرأ والناس نيام، تكلم والناس سكوت[2].

---

(١) صيد الخاطر ص١٨٣.

(٢) التبصرة ١/ ١٨٣.

عندما تحج القلوب

قال أبو الفرج:

كما أن للأبدان حجاً فللقلوب حج.

فإنها تنهض بأقدام العزائم، وتمتطي غوارب[1] الشوق، وتفارق كل محبوب للنفس، وتصابر في الطريق شدة الجهد.

وترد مناهل الوفا.

فإذا وصلت إلى ميقات الوصل، نزعت مخيط الآمال الدنيوية، واغتسلت من عَينِ العَيْن.

ونزلت بعرفات العرفان، ولبَّت ـ إذ لبَّت ـ من لُبَاب اللُّب.

ثم طافت حول الإجلال.

وسعت بين صفا الصفا، ومروة المروة.

فرمت جمار الهوى بأحجار، فوصلت إلى قرب الحبيب.

ولما عبر «الخليل» هذه الحالة قيل له: قد بقي

(١) غوارب: هي التي أرسلت مطلقة غير مشدودة، ولا مقيدة..

عليك ذبحٌ يجانس هذا الحج، ليس له إلا الولد، **وما** المراد إراقة دمه، بل فراغ قلبك منه[1].

إصلاح النيات

قال أبو الفرج:

ما أقل من يعمل لله تعالى خالصاً، لأن أكثر الناس يحبون ظهور عباداتهم.

وكان سفيان الثوري يقول: لا أعتد بما ظهر من عملي.

وكانوا يسترون أنفسهم.

فاعلم أن ترك النظر إلى الخلق، ومحو الجاه من قلوبهم بالتعمل وإخلاص القصد، وستر الحال، هو الذي رفع من رفع.

فالتفتوا ـ إخواني ـ إلى إصلاح النيات، وترك التزين للخلق.

ولتكن عمدتكم الاستقامة مع الحق.

فبذلك صعد السلف وسعدوا[2].

---

(١) التبصرة ٢/ ٢٨١.

(٢) صيد الخاطر، ص٢٢٩.

المبادرة بالأعمال

قال أبو الفرج:

طوبى لمن بادر عمره القصير، فعمر به دار المصير، وتهيأ لحساب الناقد البصير، قبل فوات القدرة وإعراض النصير.

قال عليه الصلاة والسلام: (بادروا بالأعمال سبعاً: هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال، فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر)[1].

كان الحسن يقول: عجبت لأقوام أمروا بالزاد، ونودي فيهم بالرحيل، وجلس أولهم على آخرهم وهم يلعبون.

واعلم: أن الراحة لا تنال بالراحة، ومعالي الأمور لا تنال بالفتور، ومن جد وجد، ومن زرع حصد[2].

لا تذم الدنيا

قال أبو الفرج:

تأملت أحوال الصوفية والزهاد، فرأيت أكثرها

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٦).

(٢) اليواقيت الجوزية ص٢٢.

منحرفاً عن الشريعة، بين جهل بالشرع وابتداع بالرأي.

فمن ذلك: أنهم سمعوا القرآن العزيز يقول: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ثم سمعوا في الحديث (للدنيا أهون على الله من شاة ميتة على أهلها) فبالغوا في هجرها من غير بحث عن حقيقتها.

وذلك أنه ما لم يُعرَف حقيقة الشيء فلا يجوز أن يمدح ولا أن يذم.

فإذا بحثنا عن الدنيا رأينا هذه الأرض البسيطة التي جعلت قراراً للخلق، تخرج منها أقواتهم، ويدفن فيها أمواتهم.

ومثل هذا لا يذم لموضع المصلحة فيه.

ورأينا ما عليها من ماء، وزرع، وحيوان، كله لمصلحة الآدمي، وفيه حفظ لسبب بقائه.

ورأينا بقاء الآدمي سبباً لمعرفة ربه، وطاعته إياه، وخدمته.

وما كان سبباً لبقاء العارف العابد، يمدح ولا يذم.

فبان لنا: أن الذم إنما هو لأفعال الجاهل، أو العاصي في الدنيا.

وإنه إذا اقتنى المال المباح، وأدى زكاته، لم يُلَم[1].

الشره في الكماليات

قال أبو الفرج:

قد يقع الشره في فنون ما يلتذ به من الأبنية المنقوشة، والخيل المسومة، والملابس الفاخرة وغير ذلك.

وهذا مرض أصله موافقة الهوى.

وعلاجه: أن يعلم أن الحساب على كسب الحلال شديد عزيز. والتبذير ممنوع منه، وأن الله لا ينظر إلى من جر ثوبه خيلاء، وأن كل شيء يؤجر عليه المؤمن إلا البناء[2].

المراقبة في الخلوات

قال أبو الفرج:

رأيت أقواماً من المنتسبين إلى العلم، أهملوا نظر الحق ـ عزّ وجلّ ـ إليهم في الخلوات، فمحا محاسن

---

(١) صيد الخاطر، ص٣٣.

(٢) الطب الروحاني، ص٢٨ تحقيق: مصطفى عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة.

ذكرهم في الجلوات، فكانوا موجودين كالمعدومين، لا حلاوة لرؤيتهم، ولا قلب يحنّ إلى لقائهم.

فاللهَ اللهَ في مراقبة الحق عزّ وجلّ.

فإن ميزان عدله تبين فيه الذرة، وجزاؤه مرصد للمخطئ ولو بعد حين.

فاللهَ الله، الخلوات.. الخلوات.

البواطن البواطن.

النيات النيات.

فإن عليكم من الله عيناً ناظرة.

وإياكم والاغترار بحلمه وكرمه، فكم قد استدرج!

وكونوا على مراقبة الخطايا، مجتهدين في محوها.

وما شيء ينفع كالتضرع مع الحمية عن الخطايا، فلعله..

وهذا فصل إذا تأمله المعامل لله تعالى نفعه[1].

المقصود معنى العلم

قال أبو الفرج:

أقرب الخلق من الله العلماء.

---

(١) صيد الخاطر، ص١٢٨ ـ ١٢٩.

وليس العلم بمجرد صورته هو النافع، بل معناه.

وإنما ينال معناه من تعلمه للعمل به.

فكلما دله على فضل اجتهد في نيله، وكلما نهاه عن نقص بالغ في تجنبه.

فحينئذٍ يكشف العلم له سرَّه، ويسهل عليه طريقه[1].

مكانة المال وحفظه

قال أبو الفرج:

اجتهاد العاقل فيما يصلحه لازم له بمقتضى العقل والشرع.

فمن ذلك: حفظ ماله، وطلب تنميته والرغبة في زيادته،

ولأن سبب بقاء الإنسان ماله، فقد نُهيَ عن التبذير فيه، فقيل له: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ فأعلم أنه سبب لبقائه: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥] أي قواماً لمعاشكم.

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

---

(١) صيد الخاطر، ص١٥٠.

وقال تعالى: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

ومن فضيلة المال: أن الله تعالى قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ﴾ [الحديد: ١٠].

وجعل المال نعمة، وزكاته تطهيراً، فقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال ﷺ: (نعم المال الصالح للرجل الصالح).

وقال: (ما نفعني مال كمال أبي بكر).

وكان أبو بكر رضي الله عنه يخرج إلى التجارة، ويترك رسول الله ﷺ فلا ينهاه عن ذلك.

وقال عمر رضي الله عنه: لأن أموت بين شعبتي جبل أطلب كفاف وجهي، أحب إلي من أن أموت غازياً في سبيل الله.

وكان جماعة من الصحابة رضي الله عنهم يتجرون.

ومن سادات التابعين سعيد بن المسيب، مات وخلف مالاً.

وما زال السلف على هذا.

ثم قد تعرض نوائب كالمرض، يحتاج فيها إلى شيء من المال، فلا يجد الإنسان بدّاً من الاضطراب في طلبه، فيبذل عرضه أو دينه.

ثم للنفس قوة بدنية عند وجود المال، وهو معدود عند الأطباء من الأدوية. وتلك حكمة وضعها الواضع.

وإنما نبغ أقوام طلبوا طريق الراحة، فادعوا أنهم متوكلة، وقالوا: نحن لا نمسك شيئاً، ولا نتزود لسفر، ورزق الأبدان يأتي.

وهذا على مضادة الشرع، فإن رسول الله ﷺ نهى عن إضاعة المال.

ونبينا ﷺ لما هاجر تزوَّد، وأبلغ من هذا قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ثم يدعي هؤلاء المتصوفة بغض الدنيا، فلا يفهمون ما الذي ينبغي أن يبغض!!

وما زال صالحو السلف يفتشون على المطعم، حتى كان إبراهيم بن أدهم يسهر هو وأصحابه ويقولون: مع من نعمل غداً؟[١]

---

(١) صيد الخاطر، ص١٤٤.

الذكر

قال أبو الفرج:

يا هذا، عليك بإدمان الذكر، ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

أنا جليس من ذكرني.

أخلص في ذكرك لعله يذكرك.

يا هذا، من علامات المحب انزعاجه عند ذكر محبوبه، لو أحببت شخصاً من أهل ا لدنيا فسمعت باسمه لأنزعج باطنك.

وهذا ذكر الله يتلىٰ عليك وما تتغير.

وكم تسمع من أوامره ونواهيه ولا تتدبر.

أما سمعت قوله في كتابه العزيز: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٥][1].

محاسبة النفس

قال أبو الفرج:

أيها العبد حاسب نفسك في خلوتك، وتفكر في انقراض مدتك.

---

(١) اليواقيت الجوزية، ص٣٧.

واعمل في زمان فراغك لوقت شدتك.

وتدبر قبل الفعل ما تملي في صحيفتك.

وانظر هل نفسك معك أو عليك في مجاهدتك.

لقد سعد من حاسبها، وفاز ـ والله ـ من حاربها، وقام باستيفاء الحقوق منها وطالبها.

قال عليه الصلاة والسلام: (الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني)[1].

وقال عمر رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا»[2].

لو عرفت قدر نفسك

قال أبو الفرج:

ويحك! لو عرفت قدر نفسك، ما أهنتها بالمعاصي.

إنما أبعدنا إبليس لأجلك، لأنه لم يسجد لك.

فالعجب منك! كيف صالحته وهجرتنا؟![3].

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦١).

(٢) اليواقيت الجوزية، ص٣٣.

(٣) المدهش، ص٣٤٩.

سبل النجاة

قال أبو الفرج:

من حصد عشب الذنوب بمنجل الورع، طابت له روضة الاستقامة.

من قطع فضول الكلام بشفرة الصمت، وجد عذوبة الراحة في القلب.

من ركب مركب الحذر، مرت به رخاء الهدى إلى رجاء النجاة.

من أرسى على ساحل الخوف، لاحت له بلاد الأمن.

ألا عزيمة عمرية؟ ألا هجرة سلمانية؟[1]

تكليف البدن وتكليف العقل

قال أبو الفرج:

قال كثير من الصحابة والتابعين: ليتنا لم نخلق!

وما ذاك إلا لأثقال عجزوا عنها.

ومن ظن أن التكاليف سهلة، فما عرفها.

أتُرى يظن الظان أن التكاليف: غسل الأعضاء برطل

---

(١) المدهش، ص٣٢٤، وسلمانية: نسبة إلى سلمان الفارسي ﷺ.

من الماء، أو الوقوف في محراب لأداء ركعتين؟ هيهات! هذا أسهل التكليف.

وإن التكليف هو الذي عجزت عنه الجبال[1]، ومن جملته: أنني إذا رأيت القدر يجري بما لا يفهمه العقل، ألزمت العقل الإذعان للمقدر، فكان من أصعب التكليف.

وخصوصاً فيما لا يعلم العقل معناه: كإيلام الأطفال، وذبح الحيوان، مع الاعتقاد بأن المقدِّر لذلك والآمر به، أرحم الراحمين.

فهذا مما يتحير فيه العقل، فيكون تكليفه التسليم، وترك الاعتراض.

فكم بين تكليف البدن وتكليف العقل؟![2]

الخوف من الله

قال أبو الفرج:

إخواني: من علم عظمة الإلٰه زاد وَجَلُه، ومن خاف نِقم ربه حسن عمله.

---

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب].

(٢) صيد الخاطر، ص٤٢.

فالخوف يستخرج داء البطالة ويشفيه، وهو نعم المؤدب للمؤمن ويكفيه.

قال الحسن: صحبت أقواماً كانوا لحسناتهم أن ترد عليهم، أخوف منكم من سيئاتكم أن تعذبوا بها.

واعلم أن خوف القوم لو انفرد قتل، غير أن نسيم الرجاء يروِّح أرواحهم. وقد روي: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاُعتدلا.

فالخوف للنفس، والرجاء لها قائد[١].

الأيام ثلاثة

قال أبو الفرج:

يا هذا، الأيام ثلاثة:

أمس قد مضى بما فيه.

وغد لعلك لا تدركه.

وإنما هو يومك هذا، فاجتهد فيه، ولله در من تنبه لنفسه، وتزود لرمسه، واستدرك ما مضى من أمسه قبل طول حبسه[٢].

---

(١) اليواقيت الجوزية، ص٣٧.

(٢) التبصرة، للإمام ابن الجوزي ١/ ١٥٣.

فات زمن الاستدراك

قال أبو الفرج:

اعلم أنك إن لم تدرك أشراط القيامة، فقيامتك العاجلة موتك.

فإذا حانت ساعة الوفاة:

- فات زمن الاستدراك.

- وخرج ربيع البدار.

وسُدَّ باب الإجابة عن دعاء الإنابة. كما قال الله عزّ وجلّ في القيامة: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٨] أي فمن أين لهم إذا جاءتهم الساعة أن يتذكروا ويتوبوا إذا جاءت؟

فكذلك عند صرعة الموت، لا عثَرَةَ تقال، ولا توبة تنال.

روى مروان بن سالم عن البرجمي رفعه، قال: احضروا موتاكم، ولقنوهم لا إلٰه إلا الله، وبشروهم بالجنة[١].

فإن الحليم العليم يتحير عند ذلك المصرع، وإن

---

(١) الذي في صحيح مسلم: (لقنوا موتاكم لا إلٰه إلا الله) [٩١٦، ٩١٧].

إبليس أقرب ما يكون من العبد في ذلك الموطن عند فراق الدنيا، وترك الأحبة[1].

أنت مثلهم بعد أيام

قال أبو الفرج:

أعجب الأشياء، اغترار الإنسان بالسلامة، وتأميله الإصلاح فيما بعد. وليس لهذا الأمل منتهى، ولا للاغترار حد.

فكلما أصبح وأمسى معافى زاد الاغترار، وطال الأمل.

وأي موعظة أبلغ من أن ترى ديار الأقران.. وقبور المحبوبين، فتعلم أنك بعد أيام مثلهم، ثم لا يقع انتباه حتى ينتبه الغير بك،

هذا ـ والله ـ شأن الحمقى.

حاشا من له عقل أن يسلك هذا المسلك.

بل ـ والله ـ إن العاقل ليبادر السلامة، فيدخر من زمنها للزمن، ويتزود عند القدرة على الزاد لوقت العسرة[2].

---

(١) التبصرة ١/ ١٧٥.

(٢) صيد الخاطر، ص٢٩١.

الدعاء بعد التوبة

قال أبو الفرج:

إذا وقعتَ في محنة يصعب الخلاص منها، فليس لك إلا الدعاء واللجأ إلى الله، بعد أن تقدم التوبة من الذنوب.

فإن الزلل يوجب العقوبة.

فإذا زال الزلل بالتوبة من الذنوب ارتفع السبب.

فإذا تُبْتَ ودعوتَ، ولم تر للإجابة أثراً، فتفقد أمرك، فربما كانت التوبة ما صَحَّتْ، فصححها، ثم ادع ولا تملَّ من الدعاء.

وربما كانت المصلحة في تأخير الإجابة.

وربما لم تكن المصلحة في الإجابة.

فأنت تثاب وتجاب إلى منافعك. ومن منافعك أن لا تعطى ما طلبت بل تعوض غيره.

وإياك أن تسأل شيئاً إلا وتقرنه بسؤال الخيرة.

فرب مطلوب من الدنيا كان حصوله سبباً للهلاك.

وإذا كنت قد أمرت بالمشاورة في أمور الدنيا، فكيف لا تسأل الخيرَ ربكَ، وهو أعلم بالمصالح،

والاستخارة[1] من حسن المشاورة[2].

ربح الأيام

قال أبو الفرج:

يا هذا، ابكِ على نفسك قبل أن يُبكى عليك، وتفكر في سهم قد صُوِّب إليك.

وإذا رأيت جنازة فاحسبها أنت.

وإذا عاينت قبراً فتوهمه قبرك.

وعدَّ باقي الحياة ربحاً[3].

الأصل

قال أبو الفرج:

أصل الأصول: العلم.

وأنفع العلوم: النظر في سيرة الرسول ﷺ وأصحابه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩][4].

---

(١) الاستخارة جاءت في حديث البخاري (١١٦٦).
(٢) صيد الخاطر، ص٣٠٥.
(٣) المدهش، ص٣١٧.
(٤) صيد الخاطر، ص٦٩.

المحبة وطهارة القلب

قال أبو الفرج:

يا هذا، طهر قلبك من الشوائب، فالمحبة لا تلقى إلا في قلب طاهر.

أما رأيت الزارع يتخير الأرض الطيبة، ويسقيها ويرويها، ثم يثيرها ويقلبها، وكلما رأى حجراً ألقاه، وكلما شاهد ما يؤذي نحاه، ثم يلقي فيها البذر، ويتعاهدها من طوارق الأذى؟

وكذلك الحق عزّ وجلّ:

إذا أراد عبداً لوداده، حصد من قلبه شوك الشرك، وطهره من أوساخ الرياء والشك.

ثم يسقيه ماء التوبة والإنابة، ويثيره بسحاب الخوف والإخلاص.

فيستوي باطنه وظاهره في التقى، ثم يلقي فيه بذر الهدى، فيثمر حبَّ المحبة[1].

التصنيف والتعليم

قال أبو الفرج:

رأيت من الرأي القويم: أن نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة.

---

(١) اليواقيت الجوزية، ص٣٩.

لأني أشافه في عمري عدداً من المتعلمين.

وأشافه بتصنيفي خلقاً لا يحصى ما خلقوا بعد.

ودليل هذا: أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم.

فينبغي للعالم أن يتوفر على التصانيف إن وفق للتصنيف المفيد، فإنه ليس كل من صنف صنف.

وليس المقصود جمع أي شيء كيف كان، وإنما هي أسرار يطلع الله عزّ وجلّ عليها من شاء من عباده، ويوفقه لكشفها:

فيجمع ما فرق.

أو يرتب ما شتت.

أو يشرح ما أهمل.

هذا هو التصنيف المفيد[1].

كل من عليها فان

قال أبو الفرج:

يا معدوداً ـ مع الشيب ـ في الصبيان.

يا محبوساً ـ مع البصراء ـ في العميان.

---

(١) صيد الخاطر، ص٢١٠.

يا واقفاً في الماء، وهو ظمآن.

يا عارفاً بالطريق، وهو حيران.

أما وعظت بآي القرآن؟ أما زجرت بنأي الأقران؟

أما تعتبر بصروف الزمان؟ أتعمر المنزل؟ وعلى الرحيل السكان.

أما يكفي وعظ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمٰن][1].

التصنع بالأعمال

قال أبو الفرج:

عجبت لمن يتصنع للناس بالزهد يرجو بذلك قربه من قلوبهم، وينسى أن قلوبهم بيد من يعمل له.

فإن رضي عمله ورآه خالصاً لفت القلوب إليه.

وإن لم يره خالصاً أعرض بها عنه.

ومتى نظر العامل إلى التفات القلوب إليه، فقد زاحم الشرك نيتَه، لأنه ينبغي أن يقنع بنظر من يعمل له.

ومن ضرورة الإخلاص ألا يقصد التفات القلوب إليه.

---

(١) المدهش، ص٥٤٠.

فالقلوب تشهد للصالح بالصلاح، وإن لم يُشاهد منه ذلك.

فأما من يقصد رؤية الخلق بعمله، فقد مضى العمل ضائعاً، لأنه غير مقبول عند الخالق ولا عند الخلق.

فليتقِ الله العبدُ، وليقصد من ينفعه قصده.[1]

الإخلاص

قال أبو الفرج:

الإخلاص مِسك[2] مصون في مَسْك[3] القلب، ينبه ريحه على حامله.

العمل صورة، والإخلاص روح، إذا لم تخلص فلا تتعب.

لو قطعت سائر المنازل، لم تكن حاجاً إلا بشهود الموقف.

لا تغتر بصورة الطاعات، فإن خصم الإخلاص إذا جاء عند حاكم الجزاء ألزم الحبس عن القبول.

سوق الإخلاص رائجة رابحة ليس فيها كساد.

---

(١) صيد الخاطر، ص٣٢٣.

(٢) مِسك: المسك، الطيب.

(٣) مَسْك: بفتح الميم: الجلد.

المخلص يعدُّ طاعاته ـ لاْحتقارها ـ عرضاً، وقلم القبول قد أثبتها في حيِّز الجوهر[١].

الاعتبار بالنفس

قال أبو الفرج:

العجب ممن يقول: أخرجُ إلى المقابر فأعتبر بأهل البلى.

ولو فطن علم أنه[٢] مقبرة، يغنيه الاعتبار بما فيها عن غيرها.

خصوصاً من قد أوغل في السن، فإن شهوته ضعفت، وقواه قلَّت، والحواس كلَّت، والنشاط فتر، والشعر أبيض.

فليعتبر بما فقد.

وليستغن عن ذكر من فقد.

فقد استغنى بما عنده عن التطلع إلى غيره[٣].

---

(١) اللطائف في الوعظ، ص٧٧. تحقيق السيد بن عبد المقصود، مؤسسة الكتب الثقافية (وهو مطبوع مع كتاب اليواقيت الجوزية).

(٢) أي أن نفسه.

(٣) صيد الخاطر، ص٣٢٦.

التعرف على عيوب النفس

قال أبو الفرج:

اعلم أن النفس محبوبة، وعيوب المحبوب قد تخفى على المحب.

وفي الناس من يقوى نظره وجهاده للنفس، فينزلها منزلة العدو في المخالفة، فتظهر له عيوبها.

قال إياس بن معاوية: من لم يعرف عيب نفسه، فهو أحمق.

فقيل له: فما عيبك؟

قال: كثرة الكلام.

وهذا أمر نادر، فإن الغالب أن يخفي الإنسان عيوب نفسه.

ولسنا نريد أنه لا يعرف عيباً، فإن العاقل إذا أتى عيباً عرفه.

وإنما غرضنا العيوب الباطنة، التي لا يعلم بها الطبيب فيصف لها دواء، ولا عليها أمارة.

ومحبة الإنسان لنفسه تمنعه أن يرى العيب الخفي عيباً.

فعلى العاقل: أن يعمل فكره في عواقب خلاله

وثمراتها، فيرى عيب العيب، وحسن الحسن، فإن الفكر الصادق ناقد[1].

الوصية الشافية

قال أبو الفرج:

المقصود: أن تعلم أن الشرع تام كامل.

فإن رُزِقْتَ فهماً له، فأنت تتبع الرسول ﷺ وأصحابه، وتترك بنيات الطريق، ولا تقلد في دينك الرجال.

فإن فعلت، فإنك لا تحتاج إلى وصية أخرى.

واحذر:

جمود النقلة.

وانبساط المتكلمين.

وجموع المتزهدين.

وشَرَهَ أهل الهوى.

ووقوف العلماء على صورة العلم من غير عمل.

وعمل المتعبدين بغير علم.

ومن أيده الله بلطفه، رزقه الفهم، وأخرجه من ربقة التقليد[2].

---

(١) الطب الروحاني، ص٦٤.

(٢) صيد الخاطر، ص١١٧.

تدارك الماضي

قال أبو الفرج:

معشر المذنبين، اجعلوا أعماركم ثلاثة أيام:

يوم مضى.

ويوم أنتم فيه.

ويوم تنتظرونه، لا تدرون بما يأتيكم من صلاح أو فساد، ولعلكم لا تبلغونه.

فأصلحوا اليوم الذي مضى بالندم على ما فاتكم فيه من الطاعة والإحسان، وما اقترفتم فيه من الذنوب والعصيان.

واليوم الذي مضى إنما تصلحونه في اليوم الذي أنتم فيه بالبكاء والندامة، وذم النفس مع الملامة[١].

قيمة الوقت

قال أبو الفرج:

رأيت العادات قد غلبت الناس في تضييع الزمان وكان القدماء يحذرون من ذلك.

فقد أوصى بعض السلف أصحابه فقال: إذا خرجتم

---

(١) بستان الواعظين، ص١٥٥.

من عندي فتفرقوا، لعل أحدكم يقرأ القرآن في طريقه، فإذا اجتمعتم تحدثتم.

واعلم أن الزمان أشرف من أن يضيع منه لحظة، فإن في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من قال سبحانه الله العظيم وبحمده غُرِسَتْ له بها نخلة في الجنة)[1].

فكم يضيع الآدمي من ساعات يفوته فيها الثواب الجزيل.

وهذه الأيام مثل المزرعة، فكأنه قيل للإنسان: كلما بذرت حبة أخرجنا لك ألف صاع، فهل يجوز للعاقل أن يتوقف في البذر ويتوانى[2].

الاكتساب والإنفاق

قال أبو الفرج:

ينبغي للعاقل أن يكتسب أكثر مما يحتاج إليه.

ويقتني ما يعلم أنه لو حدث به حادثة، كان في المقتنى عوض عما ذهب.

ولو عرض مانع من الاكتساب، قام المقتنى بحاجته بقية عمره.

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٦٤).

(٢) صيد الخاطر، ص٤١٩.

ولو جاءه أولاد كان في كسبه ما يكفيه.

وفي الجملة: ينبغي أن تكون النفقة أقل من الكسب، ليقتني من الفضل ما يكون معداً لحادثة لا تؤمن.

وهذا ما يأمر به العقل الناظر في العواقب[1].

إياك والتسويف

قال أبو الفرج:

كل من يتلمح العواقب، ولا يستعد لما يجوز وقوعه، فليس بكامل العقل.

واعتبر هذا في جميع الأحوال.

مثل أن يغتر بشبابه ويدوم على المعاصي، ويسوِّف[2] بالتوبة، فربما أُخِذَ بغتة، ولم يبلغ بعض ما أمل.

وكذلك إذا سوَّف بالعمل أو بحفظ العلم، فإن الزمان ينقضي بالتسويف ويفوت المقصود.

وربما عزم على فعل خير أو وقف شيء من ماله،

---

(١) الطب الروحاني، ص٣٣.

(٢) يسوف: أي يؤجل ويظل يقول: سوف..

فسوَّف فبغت[1].

فالعاقل من أخذ بالحزم في تصوير ما يجوز وقوعه، وعمل بمقتضى ذلك.

فإن امتد الأجل لم يضره، وإن وقع المخوف كان محترزاً[2].

تفكر واعتبار

قال أبو الفرج:

إخواني: تفكروا في الحشر والمعاد، وتذكروا حين يقوم الأشهاد.

إن في القيامة لحسرات، وإن في الحشر لزفرات.

وإن عند الصراط لعثرات.

وإن الظلم يومئذٍ ظلمات.

وإن الكتب تحوي حتى النظرات.

وإن الحسرة العظمى عند السيئات.

فريق في الجنة يرتقون في الدرجات، وفريق في السعير يهبطون الدركات.

---

(١) بغت: فجأ، والمباغتة: المفاجأة.

(٢) صيد الخاطر، ص٢٥٨.

وما بينك وبين هذا، إلا أن يقال: فلان مات. وتقول: رب ارجعوني فيقال: فات[1].

الشكر على الهداية

قال أبو الفرج:

تأملتُ قوله عزّ وجلّ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧] فرأيت فيه معنى عجيباً.

وهو أنهم لما وهبت لهم العقول، فتدبروا بها عيب الأصنام، وعلموا أنها لا تصلح للعبادة، فوجهوا العبادة إلى من فطر الأشياء، كانت هذه المعرفة ثمرة العقل الموهوب، الذي به باينوا البهائم.

فإذا آمنوا بفعلهم الذي ندب إليه العقل الموهوب، فقد جهلوا قدر الموهوب، وغفلوا عن من وهب.

وأي شيء لهم في الثمرة، والشجرة ليست ملكاً لهم؟!

فعلى هذا: كل متعبد ومجتهد في علم، إنما رأى بنور اليقظة وقوة الفهم والعقل صواباً، فوقع على المطلوب.

---

(١) اليواقيت الجوزية، ص٢٠.

فينبغي أن يوجه الشكر إلى من بعث له في ظلام الطبع القبس[1].

فالعجب ممن يُدِلُّ بخير علمه، وينسى مَنْ أنعم ووفق[2].

التبذير في بضاعة العمر

قال أبو الفرج:

يا مقيماً على الهوى، وليس بمقيم.

يا مبذراً في بضاعة العمر.

متى يؤنس منك رشد؟

يا أكمه البصيرة ولا حيلة فيه لعيسى[3].

يا طويل الرقاد ولا نوم أهل الكهف.

ما لك تنفق عمرك مجازفة، وما لك بالميزان قدرة!

ويحك! قد بقي القليل، فاستدرك زبالة السراج.

أما يزعجك صوت الحادي، أما يؤلمك سوط السائق؟[4]

---

(١) القبس: شعلة من نار، والمراد به هنا: الإضاءة والنور.

(٢) صيد الخاطر، ص١١٠.

(٣) الأكمه: من ولد أعمى، وكان عيسى عليه السلام يبرئ الأكمه، ولكن لا حيلة له بشأن البصيرة.

(٤) اللطائف في الوعظ، ص٩١.

القليل من الغفلة

قال أبو الفرج:

لولا مساكنة نوع غفلة لما صنف العلماء، ولا حُفظ العلم، ولا كتب الحديث.

لأن من يقول: ربما مت اليوم كيف يكتب وكيف يسمع ويصنف.

فلا يهولنكم ما ترون من غفلة الناس عن الموت، وعدم ذكره حق ذكره، فإنها نعمة من الله سبحانه، بها تقوم الدنيا ويصلح الدين.

وإنما تذم قوة الغفلة الموجبة للتفريط، وإهمال المحاسبة للنفس، وتضييع الزمان في غير التزود، وربما قويت فحملت على المعاصي.

فأما إذا كانت بقدر، كانت كالملح في الطعام لا بدَّ منه، فإن كثر صار الطعام زعافاً.

فالغفلة تمدح إذا كانت بقَدَر كما بيَّنا، ومتى زادت وقع الذم، فافهم ما قلته[1].

---

(١) صيد الخاطر، ص٢٥٣.

اجمعوا الرحل قبل الرحيل

قال أبو الفرج:

لما رأى المستيقظون سطوة الدنيا بأهلها، وخداع العمل لأربابه، لجأوا إلى حصن الزهد، كما يأوي الصيد المذعور إلى الحرم.

لاح لهم حَبُّ المشتهى، فلما مدوا إليه أيدي التناول، بان لهم خيط الفخ، فطاروا بأجنحة الحذر، وجمعوا الرحل قبل الرحيل، وشمروا إلى سواء السبيل.

فالناس في الغفلات، وهم في قطع الفلاة.

باتت قلوبهم يقلقها الوجد، فأصبحت دموعهم يسترها الجفن.

فإذا سمعوا ناطقاً باسم الحبيب، أخذ جزر الدموع في المد.

من أقلقه الخوف كيف يسكت؟

من أزعجه الحب كيف يسكن؟

من آلمه البعد كيف يصبر؟[1].

---

(١) المواعظ والمجالس. تحقيق محمد إبراهيم سنبل، دار الصحابة للتراث بطنطا، ص٥٣.

شرف الزمان

قال أبو الفرج:

ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته، فلا يضيع منه لحظة في غير قربة.

ويقدم الأفضل فالأفضل من القول والعمل.

ولتكن نيته في الخير قائمة، من غير فتور بما لا يعجز عنه البدن من العمل، كما جاء في الحديث: (نية المؤمن خير من عمله)[1].

وقد كان جماعة من السلف يبادرون اللحظات.

فإذا علم الإنسان بأن الموت يقطعه عن العمل، عمل في حياته ما يدوم له أجره بعد موته[2].

الثمن البخس

قال أبو الفرج:

كم سكن قبلك في هذه الدار؟

فحام الموت حول حماهم ودار، ثم ناهضهم سريعاً وثار، وكأنه ولي يطلب الثار.

---

(١) قال في «مختصر المقاصد»: حسن لغيره.

(٢) صيد الخاطر، ص٢٨.

وقد خوفك بأخذ الصديق، وسلب الجار.

ومن أنذر قبل هجومه، فما جار.

يا هذا، العمر عمر قليل، وقد مضى أكثره بالتعليل، وأنت تعرِّض البقية للتأويل،

وقد آن الآن أن يرحل النزيل.

ما أرخص ما يباع عمرك، وما أغفلك عن الشراء.

والله ما بَيْعُ أخوةِ يوسف يوسف بثمن بخس، بأعجب من بيعك نفسك بمعصية ساعة.

متى ينتهي الفساد؟ متى يرعوي الفؤاد؟ يا مسافراً بلا زاد. لا راحلة ولا جواد؟!

يا زارعاً قد آن الحصاد، يا طائراً بالموت يصاد، يا بهرج البضاعة، أين الجياد[1]؟

رجال لا تلهيهم تجارة

قال أبو الفرج:

رجال إذا نظروا اعتبروا.

وإذا سكتوا تفكروا.

وإذا ابتلوا استرجعوا.

---

(١) المدهش، ص٣٠٨.

وإذا جُهِل عليهم حلموا.
وإذا علموا تواضعوا.
وإذا عملوا رفقوا.
وإذا سئلوا بذلوا عوناً للوارد، وتفضيلاً للقاصد.
حلفاء صدق، وكهوف ودق[1].

قد عملوا بالسنة والكتاب، ونطقوا بالحكمة والصواب.
وحاسبوا أنفسهم قبل يوم الحساب.
وخافوا من عقوبة رب الأرباب.
رجال لزموا البكاء.. ورضوا من الدنيا بالقليل.
وتمسكوا بالسنة والتنزيل، ومنعوا أنفسهم التسويف والتعليل[2].

إياك والمال الحرام

قال أبو الفرج:
اكتسب مالاً حلالاً، وأنفقه في قصد.
واجتنب الحرام وأهله، ولا تجالسهم، ولا تأكل طعامهم.

---

(١) الودق: المطر، والمعنى: وهم كهوف يلجأ إليها عند نزول المطر.
(٢) بستان الواعظين، ص٣٧٦.

ولا تصحب من كسبه من الحرام، إن كنت صادقاً في ورعك.

ولا تدلنَّ أحداً على الحرام فيأكله هو، وتحاسب أنت عليه.

ولا تُعِنْه ـ أيضاً ـ على طلبه، فإن المعين شريك.

فالحرام من القوت نار تذيب شحمة الفكر.

ومن الحرام يتولد عمى البصيرة، وظلام السريرة.

واعلم: أنه إنما تقبل الأعمال من آكل الحلال[1].

ابن الستين والسبعين

قال أبو الفرج:

ما أبله[2] من لا يعلم متى يأتيه الموت وهو لا يستعد للقائه.

وأشد الناس بلهاً وتغفيلاً مَنْ عبر الستين وقارب السبعين، ـ فإن ما بينهما هو معترك المنايا، ومن نازل المعترك استعد ـ وهو مع ذلك غافل عن الاستعداد.

والله! إن الضحك من الشيخ ما له معنى، وإن المزاح منه بارد المعنى.

---

(١) بحر الدموع، ص١٧٩.

(٢) ما أبله: أي ما أشد بلاهته، والبلاهة: الحمق.

وإن تعرضه للدنيا ـ وقد دفعته عنها ـ يضعف القوى ويضعف الرأي.

وهل بقي لابن الستين منزل؟!

فإن طمع في السبعين، فإنما يرتقي بعناء شديد:

إن قام دفع الأرض.

وإن مشى لهث.

وإنِ قعد تنفس.

ويرى شهوات الدنيا ولا يقدر على تناولها:

فإن أكل كدَّ المعدة، وصعب الهضم.

وإن وطئ آذى المرأة، ووقع دنفاً[1] لا يقدر على رد ما ذهب من القوة إلى مدة طويلة.

فهو يعيش عيش الأسير.

فإن طمع في الثمانين، فهو يزحف إليها زحف الصغير.

وعشر الثمانين من خاضها
فإن الملمات فيها فنون

فالعاقل من فهم مقادير الزمان..

---

(١) دنفاً: أي عليلاً مريضاً.

فإذا بلغ الستين، فقد أعذر الله إليه في الأجل، وجاز من الزمن أخطره، فليقبل بكليته على جمع زاده، وتهيئة آلات السفر.

وليعتقد أن كل يوم يحيا فيه غنيمة ما هي في الحساب، خصوصاً إذا قوي عليه الضعف وزاد.

وكلما علت سنّه فينبغي أن يزيد اجتهاده.

فإذا دخل في عشر الثمانين، فليس إلا الوداع، وما بقي من العمر إلا أسفٌ على تفريط، أو تعبد على ضعف.

نسأل الله عزّ وجلّ يقظة تامة تصرف عنا رقاد الغفلات، وعملاً صالحاً نأمن معه من الندم يوم الانتقال. والله الموفق[1].

إضاعة الوقت

قال أبو الفرج:

رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعاً عجيباً.

إن طال الليل فبحديث لا ينفع، أو بقراءة كتاب فيه سمر.

---

(١) صيد الخاطر، ص٢٤٠ ـ ٢٤٢.

وإن طال النهار فبالنوم.

وهم في أطراف النهار على دجلة، أو في الأسواق.

فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة، وهي تجري بهم، وما عندهم خبر.

ورأيت النادرين قد فهموا معنى الوجود، فهم في تعبئة الزاد، والتأهب للرحيل، إلا أنهم يتفاوتون.

وسبب تفاوتهم: قلة العلم وكثرته بما ينفق في بلد الإقامة.

فالمتيقظون منهم: يتطلعون إلى الأخبار بالنافق هناك، فيستكثرون منه، فيزيد ربحهم.

والغافلون منهم: يحملون ما اتفق، وربما خرجوا وليس معهم خفير.

فكم ممن قد قطعت عليه الطريق فبقي مفلساً.

فالله الله في مواسم العمل.

والبدار البدار قبل الفوات.

فكأن قد حدا الحادي، فلم يفهم صوته من وقع مع الندم[١].

---

(١) صيد الخاطر، ص١٣٦.

أسفار

قال أبو الفرج:

إخواني:

السفر مكتوب علينا، فما لنا نطلب الإقامة في دار ليست لنا دار مقامة؟

السنون منازل.

والشهور مراحل.

والأيام أميال.

والأنفاس خطوات.

والمعاصي قطَّاع.

والربح الجنة، والخسران النار.

خُلِقنا نتقلب في ستة أسفار، إلى أن يستقر بنا القرار:

فالسفر الأول: سفر السلالة من الطين.

والثاني: من الصلب إلى الرحم.

والثالث: من الرحم إلى ظهر الأرض.

والرابع: من ظهر الأرض إلى القبر.

والخامس: من القبر إلى موقف العرض.

والسادس: من موقف العرض إلى دار الإقامة، إما إلى الجنة أو النار.

وقد قطعنا نصف الطريق، وبقي الأصعب[(١)].

إذا رأيت تكديراً

قال أبو الفرج:

إذا رأيت تكديراً في حال:

فاذكر نعمةً ما شُكرت.

أو زلةً قد فُعلت.

واحذر من نفار النعم، ومفاجأة النقم.

ولا تغتر بسعة بساط الحلم، فربما عجل انقباضه[(٢)].

عندما يكون العالم غنياً

قال أبو الفرج:

ليس في الدنيا أنفع للعلماء من جمع المال، للاستغناء عن الناس، فإنه إذا ضُمَّ إلى العلم حيز الكمال.

---

(١) بحر الدموع، ص٦١، تحقيق: إبراهيم باجس عبد المجيد. مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٢) صيد الخاطر، ص٢٦.

وإن جمهور العلماء شغلهم العلم عن الكسب، فاحتاجوا إلى ما لا بدَّ منه.

وقلَّ الصبر فدخلوا مداخل شانتهم، وإن تأولوا فيها، إلا أن غيرها كان أحسن لهم.. وما زال خلفٌ من العلماء والزهاد يعيشون في ظل جماعة من المعروفين بالظلم.

وهؤلاء ـ وإن كانوا سلكوا طريقاً من التأويل ـ فإنهم فقدوا من قلوبهم وكمال دينهم أكثر مما نالوا من الدنيا.

فعلمنا أن كمال العز وبُعْدَ الرياء إنما يكون في البعد عن العمال الظلمة.

ولم نر من صح له هذا إلا في أحد رجلين:

إما من كان له مال، كسعيد بن المسيب، كان يتجر في الزيت وغيره، وسفيان الثوري كانت له بضائع، وابن المبارك..

وإما من كان شديد الصبر، قنوعاً بما رُزِق وإن لم يكفه، كبشر الحافي، وأحمد بن حنبل.

ومتى لم يجد الإنسان كصبر هذين، ولا كمال أولئك، فالظاهر تقلبه في المحن والآفات، وربما تلف دينه.

فعليك يا طالب العلم بالاجتهاد في جمع المال، للغنى عن الناس، فإنه يجمع لك دينك.

فما رأينا في الأغلب منافقاً في التدين والتزهد والتخشع، ولا آفة طرأت على عالم إلا بحب الدنيا، وغالب ذلك من الفقر[1].

إياك والعجب

قال أبو الفرج:

إياك يا أخي والعجب، فإنه مذموم كيف كان: بالنفس، أو بالفعل، أو بالقول، ولا تغتر بفعلك ولا بقولك، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢][2].

ملازمة التقوى

قال أبو الفرج:

اعلم أن الزمان لا يثبت على حال، كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

فتارة فقر، وتارة غنى.

---

(١) صيد الخاطر، ص١٥٣.

(٢) بحر الدموع، ص١٦٩.

وتارة عز، وتارة ذل.

وتارة يفرح المُوالي.

وتارة يشمت الأعادي.

فالسعيد: من لازم أصلاً واحداً على كل حال، وهو تقوى الله عزّ وجلّ.

فإنه إن استغنى زانته.

وإن افتقر فتحت له أبواب الصبر.

وإن عوفي تمت النعمة عليه.

وإن ابتلى جملته. ولا يضره إن نزل به الزمان أو صعد، أو أعراه، أو أشبعه، أو أجاعه. لأن جميع تلك الأشياء تزول وتتغير.

والتقوى أصل السلامة، حارس لا ينام، يأخذ باليد عند العثرة، ويوافق على الحدود.

فلازم التقوى في كل حال، فإنك لا ترى في الضيق إلا السعة، وفي المرض إلا العافية.

هذا نقدها العاجل، والآجل معلوم[١].

---

(١) صيد الخاطر، ص١١٨.

كفى بالموت واعظاً

قال أبو الفرج:

اسمع، يا من يمشي على ظهور الحفر، ويرى السابقين إلى بيوت المدر[1].

لو أصغى سَمْعَ التدبرِ سمعَ العبر، كفى بالموت واعظاً يا عمر[2].

لست على الطريق

قال أبو الفرج:

تالله! ما صحَّ من يطلبه مرضُه.

ولا سُرَّ من سيرحل عنه غرضُه.

ولا استقام غصن يلويه كاسره.

ولا طاب عيشٌ الموتُ آخره.

إن الطمع لعذاب، وحديث الأمل كذاب، وعاقبة المعاصي عقاب.

فلا يخدعنك ضياء ضباب، ولا يطمعنك شراب سراب.

---

(١) بيت المدر: هو القبر.

(٢) المواعظ والمجالس، ص١٥٢.

فمجيء الدنيا على الحقيقة ذهاب، وعمارة الفاني ـ إن فهمت ـ خراب. وفرح الغرور ثبور واكتئاب، ودنو الشيب ينسخ ضياء الشباب.

فيا تائهاً في ظلمةِ ظُلمه.

يا موغلاً في مفازة تيهه.

يا باحثاً عن مدية حتفه.

يا معمقاً مهواة مصرعه.

بئس ما اخترت لأحب الأنفس إليك.

ويحك! تطلب الجادة؟ فلست على الطريق(١).

العلم والعمل

قال أبو الفرج:

العلم والعمل توأمان، أمهما علو الهمة.

أيها الشاب، جَوْهِرْ نفسك بدراسة العلم، وحَلِّها بحلية العمل.

من لم يعمل بعلمه، لم يَدْرِ ما معه.

حامل المسك إذا كان مزكوماً، فلا حظ له فيما حمل.

---

(١) المواعظ والمجالس، ص١٤٢.

بحر قلب العالم يقذف إلى ساحل اللفظ جواهر النطق، فتلتقطها أكف الفهم.

العلماء غرباء في الدنيا لكثرة الجهال بينهم[1].

صور طواها الموت

قال أبو الفرج:

قال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبد العزيز ﷺ إلى المقبرة، فلما نظر إلى القبور بكى، ثم أقبل عليَّ فقال:

يا أبا أيوب: هذه قبور أبائي، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم، أما تراهم صرعى، قد حلت بهم المثلات، واستحكم بهم البلاء، وأصاب الهوام في أبدانهم مقيلاً.

ثم بكى حتى غشي عليه ثم أفاق، فقال: انطلق بنا، فوالله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور، وقد أمنَ من عذاب الله عزّ وجلّ.

صُوَرٌ طواها الموت طيّا
كانت محببةٌ إليَّا

---

(١) اللطائف في الوعظ، ص٩٥.

تبلى ويأكلها الترا
بُ وذكرها غضٌّ إليّا
صرعى بأنواع الحتو
فِ كأنهم شربوا الحميّا[1]
لهفي على تلك الوجو
هِ وهل يردُّ اللهفُ شيًّا
أبكي عليهم ثم أر
جعُ بعدهم أبكي عليّا
أنا ميِّتٌ بعدَ الحيا
ةِ وميِّت للحزنِ حيّا
بيتي الثرى ولو أنني
نلتُ السماء أو الثريا
ولو اعتبرت لعادَ لي
غيلان[2] وهو يذم ميّا
مَنْ للسماء بأن تدو
مَ وأنها تدعى سميّا[3]

(١) الحميا: الخمر.

(٢) غيلان: هو ذو الرمة غيلان بن عقبة، ومي: هي محبوبته، يريد أن غيلان ذمّ ميّا بعد أن كان يحبها.

(٣) سميا: تصغير سماء.

هيهات لا ترجو البقا
ءَ وابكِ نفسك يا أخيّا[1]

كيفية مجاهدة النفس

قال أبو الفرج:

تأملت جهاد النفس، فرأيته أعظم الجهاد.

ورأيت خلقاً من العلماء والزهاد لا يفهمون معناه، لأن فيهم من منعها حظوظها على الإطلاق، وذلك غلط من وجهين.

أحدهما: أنه رُبَّ مانعٍ لها شهوة، أعطاها بالمنع أوفى منها. مثل أن يمنعها مباحاً فيشتهر بمنعه إياها ذلك، فترضى النفس بالمنع لأنها قد استبدلت به المدح.

وأخفى من ذلك أن يرى ـ بمنعه إياها ما منع ـ أنه قد فَضُلَ من سواه ممن لم يمنعها ذلك.

وهذه دفائن تحتاج إلى منقاشٍ[2] فهمٍ يُخَلِّصُها.

والوجه الثاني: أننا قد كلفنا حفظها، ومن أسباب حفظها ميلها إلى الأشياء التي تقيمها، فلا بد من

---

(١) التبصرة ١٧١.

(٢) المنقاش: ما يستخرج به الشوك.

إعطائها ما يقيمها، وأكثر ذلك أو كله مما تشتهيه.

ونحن كالوكلاء في حفظها، لأنها ليست لنا، بل هي وديعة عندنا، فمنعها حقوقها على الإطلاق خطر.

ثم رُبَّ شدّ أوجب استرخاء، ورُبَّ مضيق على نفسه فَرَّتْ منه، فصعب عليه تلافيها.

وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل، يحملها على مكروهها في تناول ما ترجو به العافية. ويذوِّب في المرارة قليلاً من الحلاوة، ويتناول من الأغذية مقدار ما يصفه الطبيب، ولا تحمله شهوته على موافقة غرضها من مطعم ربما جرَّ جوعاً، ومن لقمة ربما حرمت لقمات.

فكذلك المؤمن العاقل، لا يترك لجامها، ولا يهمل مقودها، بل يرخي لها في وقت، والطِّوَل[1] بيده.

فما دامت على الجادة لم يضايقها.

فإذا رآها قد مالت ردَّها باللطف، فإن ونت وأبت فبالعنف[2].

---

(١) الطِّوَل: حبل تشد به قائمة الدابة، وترسل لترعى في إطار طول الحبل.

(٢) صيد الخاطر، ص٦٩.

ساعة الاحتضار

قال أبو الفرج:

من أظرف الأشياء إفاقة المحتضر عند موته، فإنه ينتبه انتباهاً لا يوصف، ويقلق قلقاً لا يحدّ، ويتلهف على زمانه الماضي.

ويودّ لو تُرِكَ كي يتدارك ما فاته، ويصدق في توبته على مقدار يقينه بالموت، ويكاد يقتل نفسه قبل موتها بالأسف.

ولو وجدت ذرة من تلك الأحوال في أوان العافية حصل كل مقصود من العمل بالتقوى.

فالعاقل من مثَّل تلك الساعة، وعمل بمقتضى ذلك.

فإن لم يتهيأ تصوير ذلك على حقيقته، تخايله على قدر يقظته. فإنه يكف كف الهوى، ويبعث على الجد.

فأما من كانت تلك الساعة نصب عينيه، كان كالأسير لها.

قال معروف لرجل: صلِّ بنا الظهر، فقال: إن صليت بكم الظهر، لم أصلِّ بكم العصر، فقال: وكأنك تؤمل أن تعيش إلى العصر!

نعوذ بالله من طول الأمل[١].

---

(١) صيد الخاطر، ص١٤٠.

كيف حالك من بعدك؟

قال أبو الفرج:

يا أخي، إذا أردت أنْ تدري كيف حالك من بعدك، فاخرج إلى القبور وانظرها وقد عَفَتْ. ومثِّل قبرك بين القبور.

ثم انظر ماذا تحتاج إليه في قبرك، فأكثر منه لطول مدتك فيه، وهو العمل الصالح، فأما ما سوى ذلك فما لك حاجة في شيء من أمور الدنيا، فإنه يصير عليك وبالاً في قبرك وحسرة.

وانظر حالك الذي أنت عليه، إن كان يصلح للموت والقبر فتمادى عليه، وإن كان لا يصلح لهذين فتب إلى الله تعالى منها، وارجع إلى ما يصلح[1].

العزلة كالحمية

قال أبو الفرج:

ما أعرف نفعاً كالعزلة عن الخلق، خصوصاً للعالم والزاهد.

فإنك لا تكاد ترى إلا شامتاً بنكبة، أو حسوداً على نعمة، أو من يأخذ عليك غلطاتك.

---

(١) بستان الواعظين، ص٢٦٨.

فيا للعزلة ما ألذها، سلَّمت من كدر غيبة[1]، وآفات تصنع[2]، وأحوال المداجاة[3]، وتضييع الوقت.

ثم خلا فيها القلب بالفكر، بعدما كان مشغولاً عنه بالمخالطة، فدبر أمر دنياه وآخرته.

فمثله كمثل الحمية[4]، يخلو فيها المعي بالأخلاط فيذيبها.

ومثل المخالط، كمثل رجل يريد سفراً قد أزف[5]، فجالس أقواماً فشغلوه بالحديث، حتى ضرب البوق[6] وما تزود.

فلو لم يكن في العزلة إلا التفكير في زاد الرحيل، والسلامة من شر المخالطة لكفى.

---

(١) الكدر: ضد الصفو، وهو هنا ما يشوب المجلس ويعكر صفوه.

(٢) التصنع: المجاملة.

(٣) المداجاة: المداراة والتصنع.

(٤) الحمية: هي ما يصفه الطبيب من الامتناع عن بعض الأطعمة. وكأن المصنف يريد بهذا التشبيه أن يقول، إن العزلة لا تصلح أن تكون دائمة، وإنما هي نوع من العلاج للقلب والنفس يستعمل عند الحاجة.

(٥) أزف: أي قرب.

(٦) البوق: المراد به هنا: إعلان الإنطلاق في السفر.

ثم لا عزلة ـ على الحقيقة ـ إلا للعالِم والزاهد[1]، فإنهما يعلمان مقصود العزلة.

أما العالِم، فعلمه مؤنسه، وكتبه محدثه، والنظر في سير السلف مقومه، والتفكر في حوادث الزمان السابق فرجته.

وكذلك الزاهد: تعبده أنيسه، ومعبوده جليسه[2].

الإعجاب بالنفس

قال أبو الفرج:

انتقدت على أكثر العلماء والزهاد أنهم يبطنون الكبر.

وقلَّ من رأيت إلا وهو يرى نفسه.

والعجب كل العجب ممن يرى نفسه!!

أتراه بماذا رآها؟!

إن كان بالعلم فقد سبقه العلماء.

وإن كان بالتعبد فقد سبقه العبَّاد.

---

(١) مراد المصنف أن العزلة إنما تصلح لمن يحسن الاستفادة منها.

(٢) صيد الخاطر، ص٢٣٩.

أو بالمال، فإن المال لا يوجب بنفسه فضيلة دينية.

فإن قال: قد عرفت ما لم يعرف غيري من العلم في زمني، فما عليَّ ممن تقدم؟

قيل له: ما نأمرك يا حافظ القرآن أن ترى نفسك في الحفظ، كمن يحفظ النصف، ولا يا فقيه أن ترى نفسك في العلم كالعامي.

إنما نحذرك أن ترى نفسك خيراً من ذلك الشخص المؤمن وإن قل علمه.

فإن الخيرية بالمعاني لا بصور العلم والعبادة.

فالذي يحذر منه الإعجاب بالنفس، ورؤية التقدم في أحوال الآخرة.

والمؤمن الحق لا يزال يحتقر نفسه[1].

يا قاسي القلب

قال أبو الفرج:

يا قاسي القلب، هلا بكيت على قسوتك؟!

ويا ذاهل العقل في الهوى، هلا ندمت على غفلتك؟!

(١) صيد الخاطر، ص٢٥٥.

ويا مقبلاً على الدنيا، فكأنك في حفرتك.
ويا دائم المعاصي، خَفْ من غب معصيتك.
ويا سيئ الأعمال، نُحْ على خطيئتك[1].

المصيبة العظيمة

قال أبو الفرج:

يا هذا!

ما أعظم المصيبة على من فقد قلباً واعياً.
وما أسرع العقوبة إلى من عُدِمَ طرفاً باكياً.
وما أكثر حسرة من كان أمره ساهياً.
وما أدوم ندامة من أمسى وأصبح لاهياً.

لقد غلب على قلوبنا الهوى فتملكها، واستحوذ على نفوسنا الطمع فأهلكها، ونحن عما يراد بنا غافلون، وبخلاف ما قد علمناه عاملون.

فلا الواعظ يشفي منا عليلاً.
ولا الإنذار يجد إلى قلوبنا سبيلاً.
وقد علمنا أن وراءنا يوماً ثقيلاً.

فيا عجباً من غفلة مطلوب لا بد من إدراكه، وتمادي مغترٍ بالسلامة لا ريب في هلاكه.

---

(١) اليواقيت الجوزية، ص١٩.

ألا أذن تسمع؟

ألا عين تدمع؟

ألا ذهاب إلى الله يفزع[1]؟

نذير بلا صوت

قال أبو الفرج:

إذا شيعتم الجنازة، فقد سمعتم نذيراً بلا صوت.

كم شيعتم قريباً، ورميتموه سليباً، وتركتموه غريباً، وأسمعكم من الوعظ عجيباً.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ [البقرة: ٧٤].

وأسفاً من قلة الأسف، واحزناه على عدم الحزن[2].

﴿ما كانوا يُمتَّعون﴾

قال أبو الفرج:

أين الذين كانوا في اللذات يتقلبون، ويتجبرون على الخلق، ولا يُغلبون، مزجت لهم كؤوس المنايا فباتوا يتجرعون:

---

(١) المواعظ والمجالس، ص٢٧١، ومعنى يفزع: يلجأ.

(٢) اللطائف في الوعظ ص١٣١.

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧﴾ [الشعراء: ٢٠٧].

مدوا أيديهم إلى الحرام، وأكثروا من الزلل والآثام، وكم وُعظوا بمنثورٍ ومنظومٍ من الكلام، لو أنهم يسمعون.

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧﴾.

حُمل كل منهم في كفن، إلى بيت البلى والعفن، وما صحبهم غيره من الوطن، من كل ما كانوا يجمعون.

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧﴾.

ضمهم ـ والله ـ التراب، وسُدَّ عليهم في ثراهم الباب، وتقطعت بهم الأسباب، والأحباب يرجعون.

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧﴾.

أين أموالهم والذخائر، أين أصحابهم والعشائر، دارت على القوم الدوائر، ففيم أنتم تطمعون؟

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧﴾.

شُغلوا عن الأهل والأولاد، وافتقروا إلى يسير من الزاد، وباتوا من الندم على أحسن مهاد، وإنما هذا من حصاد ما كانوا يزرعون.

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧﴾.

أين الجنود والخدَم، أين الحُرَم والحَرَم، أين النِّعم والنَّعم، بعد ما كانوا يربعون فيما يرتعون.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧﴾.

لو رأيتهم في حلل الندامة، إذا برزوا يوم القيامة، وعليهم للعقاب علامة، يساقون بالذل، لا بالكرامة، إلى النار فهم يوزعون.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧﴾.

يا معشر العاصين، قد بقي القليل، والأيام تنادي: قد دنا الرحيل، وقد صاح بكم إلى الهدى الدليل، إن كنتم تسمعون:

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧﴾[١].

الدعاء مع الصبر

قال أبو الفرج:

للبلايا نهايات معلومة الوقت عند الله عزّ وجلّ.

فلا بدَّ للمبتلى من الصبر إلى أن ينقضي أوان البلاء.

فإن تقلقل قبل الوقت لم ينفع التقلقل، فاستعجال زوال البلاء مع تقدير مدته لا ينفع.

---

(١) التبصرة ١/ ٣٣٧.

فالواجب الصبر، وإن كان الدعاء مشروعاً ولا ينفع إلا به.

إلا أنه لا ينبغي للداعي أن يستعجل، بل يتعبد بالصبر والدعاء والتسليم إلى الحكيم.

ويقطع المواد التي كانت سبباً للبلاء، فإن غالب البلاء يكون عقوبة.

فأما المستعجل، فمزاحم للمدبِّر، وليس هذا مقام العبودية، وإنما المقام الأعلى هو الرضى، والصبر هو اللازم.

والتلاحي بكثرة الدعاء نِعْمَ المعتمد.

والاعتراض حرام.

والاستعجال مزاحمة للتدبير.

فافهم هذه الأشياء، فإنها تهون البلاء[١].

المعينات على الصبر

قال أبو الفرج:

ليس في الوجود شيء أصعب من الصبر، إما على المحبوب، أو على المكروهات.

---

(١) صيد الخاطر، ص١٤٨.

وخصوصاً إذا امتد الزمان، أو وقع اليأس من الفرج.

وتلك المدة تحتاج إلى زاد يقطع به سفرها، والزاد يتنوع من أجناس.

ـ فمنه: تلمح مقدار البلاء، وقد يمكن أن يكون أكثر.

ـ ومنه: أنه في حال، فوقها أعظم منها، مثل أن يبتلى بفقد ولد، وعنده أعز منه.

ـ ومن ذلك: رجاء العوض في الدنيا.

ـ ومنه: تلمح الأجر في الآخرة.

ـ ومن ذلك: أن الجزع لا يفيد، بل يفضح صاحبه.

فليس في طريق الصبر نفقة سواها، فينبغي للصابر أن يشغل بها نفسه، ويقطع بها ساعات ابتلائه، وقد صبح المنزل[1].

العلم النافع

قال أبو الفرج:

رأيت جماعة من العلماء يتفسحون[2]، ويظنون أن

(١) صيد الخاطر، ص١٤٨.

(٢) أي يتوسعون في أمرهم ويترخصون.

العلم يدفع عنهم، وما يدرون أن العلم خصمهم، وأنه يغفر للجاهل.. قبل أن يغفر للعالم.

فتفكرت:

فإذا العلم الذي هو: معرفة الحقائق، والنظر في سِيَرِ القدماء، والتأدب بآداب القوم، ومعرفة الحق وما يجب له، ليس عند القوم.

وإنما عندهم صور ألفاظ يعرفون بها ما يحل وما يحرم، وليس كذلك العلم النافع.

إنما العلم:

فهم الأصول.

ومعرفة المعبود وعظمته وما يستحقه.

والنظر في سيرة الرسول ﷺ وصحابته.

والتأدب بآدابهم، وفهم ما نقل عنهم.

العلم النافع: هو الذي يدع أعظم العلماء، أحقر عند نفسه من أجهل الجهال[1].

ذكر الموت

قال أبو الفرج:

إخواني! أكثروا من ذكر هادم اللذات، وتصوّروا مصير الصوَّر إلى الرفات.

---

(١) صيد الخاطر، ص٢٨٢.

واعلموا: أن الشيطان لا يتسلط على ذاكر الموت، وإنما إذا غفل القلب عن ذكره دخل العدو من باب الغفلة.

قال الحسن: إن الموت فضح الدنيا، فلم يترك لذي لب بها فرحاً.

ولما احتضر عبد الملك بن مروان قال: والله لوددت أني عبد رجل من تهامة أرعى غنيمات في جبالها، وأني لم ألِ[1].

وجعل المعتضد يقول عند موته: ذهبت الحيل، فلا حيلة.. حتى صمت[2].

حقيقة الموت

قال أبو الفرج:

ما زلت على عادة الخلق في الحزن على من يموت من الأهل والأولاد، ولا أتخايل إلا بلى الأبدان في القبور، فأحزن لذلك.

فمرت بي أحاديث قد كانت تمر بي، ولا أتفكر فيها، منها قول النبي ﷺ: (إنما نفس المؤمن طائر،

---

(١) لم ألِ: أي لم أتولى الخلافة.

(٢) اليواقيت الجوزية، ص٢٤.

تعلق[1] في شجر الجنة، حتى يرده الله عزّ وجلّ إلى جسده يوم يبعثه)[2].

فرأيت أن الرحيل إلى الراحة، وأن هذا البدن ليس بشيء، لأنه مركب تفكك وفسد، وسيبنى جديداً يوم البعث، فلا ينبغي أن نفكر في بلاه.

ولتسكن النفس إلى أن الأرواح انتقلت إلى راحة، فلا يبقى كبير حزن، وأن اللقاء للأحباب عن قرب.

وإنما يبقى الأسف لتعلق الخلق بالصور.

والجسد ليس هو الآدمي، وإنما هو مركبه، فالأرواح لا ينالها البلى، والأبدان ليست بشيء.

واعتبر هذا بما إذا قلعت ضرسك ورميته في حفرة، فهل عندك خبر مما يلقى في مدة حياتك؟

فحكم الأبدان حكم ذلك الضرس، لا تدري النفس ما يلقى.

فاذكر تنعم الأرواح، وقرب التجديد، وعاجل اللقاء، فإن الفكر في تحقيق هذا يهون الحزن ويسهل الأمر[3].

---

(١) تعلق: تأكل.

(٢) رواه النسائي (٢٠٧٢)، وابن ماجه (١٤٤٩).

(٣) صيد الخاطر، ص٢٤٨.

الاعتبار بالماضي

قال أبو الفرج:

إن في الماضي للمقيم عبرة، وليس المرء من غده على ثقة، ولا العمر إذا مرَّ يعود، وعواري[1] الليالي في ضمان الارتجاع، والدهر يسير بالمقيم.

فاشترِ نفسك، والسوق قائمة، والثمن موجود، ولا تسمعنَّ حديث التسويف[2].

كيفية التعامل مع الغضبان

قال أبو الفرج:

متى رأيت صاحبك قد غضب وأخذ يتكلم بما لا يصلح، فلا ينبغي أن تعقد على ما يقوله خنصراً، ولا أن تؤاخذه به.

فإن حاله حال السكران، لا يدري ما يجري.

بل اصبر لفورته، ولا تعول عليها، فإن الشيطان قد غلبه، والطبع قد هاج، والعقل قد استتر.

---

(١) عوارِي: جمع عاريَّة. وهي ما يستعار للانتفاع به، ثم يعاد إلى صاحبه.

(٢) اللطائف في الوعظ، ص٨٦.

ومتى أخذت في نفسك عليه، أو أجبته بمقتضى فعله كنت كعاقِل واجه مجنوناً، أو كمفيق عاتب مغمىً عليه.

بل انظر بعين الرحمة، واعلم أنه إذا انتبه ندم على ما جرى[١].

التطلع إلى الكمال

قال أبو الفرج:

الكمال عزيز، والكامل قليل الوجود.

فأول أسباب الكمال: تناسب أعضاء البدن، وحسن صورة الباطن.

فصورة البدن، تسمى خَلْقاً.

وصورة الباطن، تسمى خُلُقاً.

ودليل كمال صورة البدن: حسن الصمت[٢]، واستعمال الأدب.

ودليل صورة الباطن: حسن الطبائع والأخلاق.

---

(١) صيد الخاطر، ص٢٥٧.

(٢) كذا في الأصل، ولعلها: السمت، وكلاهما صحيح المعنى.

فالطبائع: العفة، والنزاهة، والأنفة من الجهل، ومباعدة الشره.

والأخلاق: الكرم، والإيثار، وستر العيوب، وابتداء المعروف، والحلم عن الجاهل.

فمن رُزق هذه الأشياء رقَّته إلى الكمال، وظهر عنه أشرف الخلال. وإن نقصت خلة أوجبت النقص[1].

الإسراع بالتوبة

قال أبو الفرج:

يا أخي!

وقوع الذنب على القلب، كوقوع الدهن على الثوب، إن لم تعجل غسله انبسط ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: ٧٢].

أيها التائبون بألسنتهم لا يدرون ما تحت نطقهم، لا يحكم بإقراركم ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

إذا صدقت توبة التائب، بنى بيت التعبد بصخور العزائم، ولم يفده في أساسه دون الماء، إن التائبين كاتبوا الله بدموعهم، وهم ينتظرون الجواب[2].

---

(١) صيد الخاطر، ص٢٦١.

(٢) المواعظ والمجالس، ص١٦٨.

إحصاء دقيق

قال أبو الفرج:

يا من تحصى عليه اللفظة والنظرة، مزِّق بيد الجد أثواب الفترة.

وتأهب، فما تدري، السير عشاء أو بكرة؟

واعتبر بالقرباء، فالعبرة تبعث العبرة.

وتزود لسفرة، ما مثلها سفرة.

واقنع باليسير، فالحساب عسير، على الذرة.

وإياك والحرام، وانظر من أين الكسرة؟ قبل أن تلقى ساعة الحسرة[(١)].

بين الأذان والإقامة

قال أبو الفرج:

يا هذا! الشيب أذان، والموت إقامة، ولست على طهارة.

العمر صلاة، والشيب تسليم.

يا من قد خيَّم حب الهوى في صحراء قلبه. اقلع الأطناب، فقد ضرب بوق الرحيل.

---

(١) المدهش، ص٢٩٦.

أما تسمع صوت السوط في ظهور الإبل؟

أما ترى عجلة السلب، وقصر العمر؟

شارف الركب بلد الإقامة، فاستحِثَّ المطي[1].

الاعتبار بالعثرات

قال أبو الفرج:

رأيت كل من يعثر بشيء، أو يزلق في مطر، يلتفت إلى ما عثر به، فينظر إليه:

إما ليحذر منه إن جاز عليه مرة أخرى.

أو لينظر كيف فاته التحرز من مثل هذا.

فأخذت من ذلك إشارة، وقلت:

يا من عثر مراراً، هلَّا أبصرت ما الذي أعثرك، فاحترزت من مثله؟

فإن الغالب ممن يلتفت أن معنى التفاته: كيف عثر مثلي مع احترازه بمثل ما أرى؟

فالعجب لك كيف عثرت بمثل الذنب الفلاني، والذنب الفلاني؟

كيف غرك زخرف تعلم بعقلك باطنه؟

(١) المدهش، ص٣٠٠.

كيف آثرت فانياً على باق؟

آه لك، لقد اشتريت بما بعت أحمال ندم لا يقلُّها ظهر[1][2].

الأصول أولاً

قال أبو الفرج:

رأيت كثيراً من الناس:

- يتحرزون من رشاش نجاسة، ولا يتحاشون من غيبة.

- ويكثرون من الصدقة، ولا يبالون بمعاملات الربا.

- ويتهجدون بالليل، ويؤخرون الفريضة عن الوقت.

في أشياء يطول عددها، من حفظ فروع، وتضييع أصول.

فبحثت عن سبب ذلك، فوجدته في شيئين:

أحدهما: العادة.

والثاني: غلبة الهوى في تحصيل المطلوب، فإنه قد يغلب فلا يترك سمعاً ولا بصراً.

---

(١) لا يقلها ظهر: أي لا تحملها دابة.

(٢) صيد الخاطر، ص١٢٣.

وفي الناس، من يطيع في صغار الأمور دون كبارها، وفيما كلفته عليه خفيفة أو معتادة، وفيما لا ينقص شيئاً من عادته في مطعم وملبس.

فالله الله في تضييع الأصول[1].

المتصدق بمال لا يملكه

قال أبو الفرج:

رأيت بعض المتقدمين: سئل عن من يكتسب حلالاً وحراماً من السلاطين والأمراء، ثم يبني المساجد والأربطة، هل له فيها ثواب؟

فأفتى بما يوجب طيب قلب المنفق، وذكر أن له في إنفاق ما لا يملكه نوع حسنة، لأنه لا يعرف أعيان المغصوبين فيردها عليهم.

فقلت:

واعجباً من المتصدين للفتوى، الذين لا يعرفون أصول الشريعة.

ينبغي أن ينظر في حال هذا المنفق أولاً.

فإن كان سلطاناً، فما يخرج من بيت المال، قد

(١) صيد الخاطر، ص١٥٥.

عرفت وجوه مصارفه، فكيف يمنع مستحقه؟!

وإن كان المنفق من الأمراء، فإنه يجب أن يرد ما يجب رده إلى بيت المال.

فإن تصرف في غير ذلك كان متصرفاً فيما ليس له. ولو أذن له ما كان الإذن جائزاً.

هذا، وإن كان حراماً أو غصباً، فكل تصرف فيه حرام، والواجب رده على من أخذ منه، أو على ورثتهم[(١)].

اقتفاء آثار التوابين

قال أبو الفرج:

إخواني! بادروا بالتوبة من الذنوب، واقتفوا آثار التوابين، واسلكوا مسالك الأوابين، الذين نالوا التوبة والغفران، وأتعبوا أنفسهم في رضا الرحمٰن.

فلو رأيتهم في ظلم الليالي قائمين، ولكتاب ربهم تالين، بنفوس خائفة، وقلوب واجفة، قد وضعوا جباههم على الثرى، ورفعوا حوائجهم لمن يَرى ولا يُرى[(٢)].

---

(١) صيد الخاطر، ص٣٢١.

(٢) بحر الدموع، ص٣٨.

رفيق التقوى

قال أبو الفرج:

يا أخي!

لا يبيعُ الباقي بالفاني إلا خاسر.

وإياك والأنس بمن ترحل عنه، فتبقى كالحائر.

رفيق التقوى، رفيق صادق، ورفيق المعاصي غادر.

مهر الآخرة يسير: قلب مخلص، ولسان ذاكر.

إذا شبت ولم تنتبه، فاعلم أنك سائر[(١)].

الصلاة

قال أبو الفرج:

يروى عن يوسف بن عاصم: أنه ذكر له عن حاتم الأصم أنه كان يتكلم على الناس في الزهد والإخلاص.

فقال يوسف لأصحابه: اذهبوا بنا إليه نسأله عن صلاته إن كان يكملها، وإن لم يكن يكملها، نهيناه عن ذلك.

قال: فأتوه، وقال له يوسف: يا حاتم جئنا نسألك عن صلاتك.

---

(١) بحر الدموع، ص١٠٦.

فقال له حاتم: عن أي شيء تسألني عافاك الله؟ عن معرفتها، أو عن تأديتها؟

فالتفت يوسف إلى أصحابه وقال لهم: زادنا حاتم ما لم نحسن أن نسأله عنه، ثم قال لحاتم: نبدأ بتأديتها.

فقال لهم: تقوم بالأمر، وتقف بالاحتساب، وتدخل بالسنة، وتكبر بالتعظيم وتقرأ بالترتيل، وتركع بالخشوع، وتسجد بالخضوع، وترفع بالسكينة، وتتشهد بالإخلاص، وتسلم بالرحمة.

قال يوسف: هذا التأدية، فما المعرفة؟

قال: إذا قمت إليها، فاعلم أن الله مقبل عليك، فأقبل على من هو مقبل عليك، واعلم بأنه قريب منك، قادر عليك. فإذا ركعت، فلا تؤمل أن ترفع، وإذا رفعت فلا تؤمل أن تسجد، وإذا سجدت فلا تؤمل أن تقوم. ومثِّل الجنة عن يمينك والنار عن يسارك، والصراط تحت قدميك، فإذا فعلت، فأنت مصلٍّ.

فالتفت يوسف إلى أصحابه وقال: قوموا نعيد الصلاة التي مضت من أعمارنا[1].

---

(١) بحر الدموع، ص١٢١ ـ ١٢٢.

غفلة

قال أبو الفرج:

ما هذه الغفلة وأنتم مستبصرون؟

ما هذه الرقدة وأنتم مستيقظون؟

كيف نسيتم الزاد وأنتم راحلون؟

أين من كان قبلكم؟ ألا تتفكرون!!

أما رأيتم كيف نازلهم المنون ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠﴾ [يسٓ].

لو حضرت القلوب، لجرت من العيون العيون.

فرحم الله عبداً أعتق نفسه من رق شهواتها.

ونظر لها قبل مماتها.

وأخذ من جدته عتاداً لفقره، وادخر من صحته زاداً لقبره[1].

صرخة تنبيه

قال أبو الفرج:

تنبه! أيها الشاب لاغتنام العمل.

---

(١) رؤوس القوارير، مجموعة رسائل ابن الجوزي، ص٢٣٠، سلسلة إصدارات الحكمة، بريطانيا عام١٤٢١هـ.

تيقظ! أيها الكهل قبل خيبة الأمل.

بادر أيها الشيخ، فكأن قد قيل رحل.

كأنك بالمرض قد ألقاك صريعاً، وبالندم قد أبكاك نجيعاً، وبالأسف قد ضربك ضرباً وجيعاً، وبملك الموت قد أقبل إليك سريعاً، والجبين من العرق يرشح، والطرف من الفَرَقِ يسفح، والروح في القلق يسبح، وأنت تبسط كفاً وتقبض كفاً، والملك يكفك عن التصرف كفاً.

وسفينة الحسرات في موج العبرات تتكفأ، ثم يرمى بك في جانب لحدٍ وتخفى، وتلقى ما على الله لا يخفى.

فتبقى في تلك الحفرة كالمأسور، تمضي عليك الأزمان والعصور، إلى أن ينفخ في الصور.

هذا وقد سمعت عذاب القبور، ثم تقوم نادماً يوم النشور، والأرض تزلزل، والسماء تمور، والجلود والنار تفور.

والأسف شديد بكتاب منشور، والسؤال دقيق ولست بمعذور، والحساب قد فصل ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ [العاديات].

والصراط عجيب لا يشبه الجسور، فيا له من يوم

أهونه صعق موسى ودك الطور[1].

رداء العمل

قال أبو الفرج:

يُرَدَّى العامل برداء عمله في الخير والشر.

فالمخلص: بالقلوب محبوب، وعلى الألسن مذكور.

والمرائي ممقوت، ولو تلا الزبور.

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠][2].

آثار الظلم

قال أبو الفرج:

الظلم مسلبة للنعم، والبغي مجلبة للنقم.

وأقرب الأشياء صرعة المظلوم.

وأنفذ السهام دعوة المظلوم.

ومن تغذى بسوء السيرة تعشى بزوال القدرة.

ومن ظلم يتيماً، ظلم أولاده.

---

(١) رؤوس القوارير، مجموعة رسائل ابن الجوزي، ص٢٣٢.

(٢) المصدر قبله ص٥٥.

فالملك يبقى مع الكفر، ولا يبقى مع الظلم[١].

الغيبة

قال أبو الفرج:

الغيبة بالقلب حرام، كما هي باللسان حرام.

فحد الغيبة، كما بيّنه رسول الله ﷺ: أن تذكر أخاك بما يكرهه، وإن كنت صادقاً.

سواء ذكرت نقصاناً في نفسه، أو عقله، أو ثوبه، أو في فعله، أو في قوله، أو في دينه، أو في داره، أو في دابته، أو في ولده، أو في عبده، أو بشيء ما يتعلق به، حتى قولك: إنه واسع الكم، طويل الذيل.

والغيبة لا تقتصر على اللسان، بل كل ما يُفْهَمُ منه عرض يكرهه المذكور فيه إن بلغه أو سمعه، باليد، أو بالرجل، أو بالإشارة، أو بالحركة، أو بالتعريض، أو بالمحاكاة، فهي غيبة[٢].

---

(١) الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء، ص٥١. تحقيق د. فؤاد عبد المنعم أحمد. دار الحرمين للنشر. الدوحة.

(٢) بحر الدموع، ص١٦٢.

الفصاحة

قال أبو الفرج:

يا هذا، ليس المرغوب الفصاحة في المقال، وإنما المرغوب الفصاحة في الفعال.

ولو كانت الفصاحة محمودة في المقال دون الفعال، لكان هارون أولى بالرسالة من موسى عليهما السلام[١].

توبة المريض

قال أبو الفرج:

ينبغي للمريض ما دام ثابت العقل: أن يتوب ليلقى الله طاهراً من كل ذنب. وأن يجرد وصيته، وأن يسلم أهله وولده إلى الله سبحانه وتعالى، فإنه يتولى الصالحين[٢].

---

(١) بحر الدموع، ص١٧١.

(٢) الطب الروحاني، ص٦٠.

مواعظ قصيرة

قال أبو الفرج:

شبكة الحساب ضيقة الأعين، لا يعبرها شيء.



العبارات حظ النفوس، والإشارات قوت القلوب.



لا تظنوا العالِم شخصاً واحداً، العالِم عالَم، تصانيف العالِم أولاده المخلدون دون أولاده.



جز على القبور، بقلب حاضر، وسلها: ما فعل الوجه الناضر[1]؟



العين لا تصيب إلا ما يستحسن، ولا يكفي الاستحسان في إصابة العين حتى يكون من حاسد، ولا يكفي ذلك حتى يكون من شرير الطبع.



---

(١) المدهش، ص٥٠١، ٥٠٨، ٥٢٩، ٥٦٢.

ليس في الدنيا على الحقيقة لذة، إنما هي راحة من مؤلم.



اعلم أن الطريق الموصلة إلى الحق سبحانه، ليست مما يقطع بالأقدام، وإنما يقطع بالقلوب.

والشهوات العاجلة قطاع الطريق[1].



من سعادة المرء: أن يقر على نفسه بالعجز والتقصير في جميع أفعاله وأقواله.



وقت التائب كله عمل: نهاره صوم، وليله سهر، ووقت البطال كله غفلة وبصيرته عميت عن النظر[2].



العاقل من نظر في مقدار إقامته، وتلمَّح بيت نقلته، فحينئذ يقنع من الثياب بما يواريه، ومن البنيان بما يؤويه.



من عرف الله تعالى حق معرفته، أخلص له عمله.

وإنما يقع الرياء من قلة المعرفة له، وتعظيم قدر الخلق.



---

(١) صيد الخاطر، ص٢٧٥، ٢٨٩، ٣١٧.

(٢) بحر الدموع، ص١٧٢، ١٧٣.

إن زمان العمل بالإضافة إلى مدة البقاء في القبر كلحظة.

ثم إضافة ذلك إلى البقاء السرمدي، إما في الجنة وإما في النار فليس بشيء[1].



إن في الماضي للمقيم عبرة، وليس المرء من غده على ثقة، ولا العمر إذا مرَّ يعود.



إذا كان القلب نقياً ضج لحدوث المعصية، فإذا تكررت مرَّت عليه ولم ينكر.



ويحك! كسب الدنيا لذيذ، غير أن الحساب عليها شديد، ساعة الحمل لعب، والجد في الولادة.



واعجباً! قوسك مكسورة بالزلل، ووترك مقطوع بالكسل، فكيف تنال صدر الغرض[2].



إخواني: لا تقنعوا بالحركات، فإن الله لا ينظر إلى صوركم.

---

(١) الطب الروحاني، ص٢٨، ٤٧، ٦٣.

(٢) اللطائف، ص ٨٦، ٩٢، ٩٧، ١٠٩.

يا هذا، اطلب قبل ماء الوضوء قلبك، فإن وجدته فقدم إناءك[1].

مواسم العمر[2]

قال أبو الفرج:

الحمد لله الذي جعل الأعمار مواسم:

يربح فيها ممتثل المراسم، ويخسر المضيع الخاسر.

فهي موضوعة لبلوغ الأمل، ورفع الخلل، وافرة الأرباح لمن اتجر، مهلكة الأرواح لمن فجر.

الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وأكثر، والسيئة ترد المستقيم إلى حال مكدر.

وهذا العمر اليسير يشترى به الخلود الدائم في الجنان، فيا خيبة المفرط الحيران.

---

(١) اليواقيت الجوزية، ص٤٥.

(٢) هذه رسالة للإمام ابن الجوزي بعنوان «تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر» نشرتها مع مجموعة رسائل أخرى، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت، تحت عنوان: «كتاب التحفة البهية والطرفة الشهية».
وقد رأيت أن أختار بعض ما جاء فيها مما يتناسب مع موضوعنا.

فينبغي للعاقل أن يعرف قدر عمره، وأن ينظر لنفسه في أمره، فيغتنم ما يفوت استدراكه، وربما حصل بتضييعه هلاكه.

واعلم ـ وفقك الله ـ أن مواسم العمر خمسة:

الأول: من وقت الولادة إلى زمن البلوغ.

والثاني: من زمن البلوغ إلى خمس وثلاثين سنة، وهو زمن الشباب.

والثالث: من ذلك الزمن إلى تمام الخمسين، وذلك زمن الكهولة.

والرابع: من بعد الخمسين إلى تمام السبعين، وذلك زمن الشيخوخة.

والخامس: ما بعد السبعين إلى تمام العمر، وهو زمن الهرِم.

ففي الموسم الأول:

اعلم أن هذا الموسم يتعلق معظمه بالوالدين، فهما يربيان ولدهما ويعلمانه ويحملانه على مصالحه، فلا ينبغي أن يفترا عن تأديبه وتعليمه. فإن التعليم في الصغر كالنقش في الحجر.

قال علي رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦] قال: علموهم وأدبوهم.

فليعلمانه الطهارة والصلاة، ويضربانه على تركها إذا بلغ سبع سنين، ويحفظانه القرآن، ويسمعانه الحديث، وما احتمل من العلم يأمرانه به، وينهيانه عن القبيح ويحثانه على المكارم، فإنه موسم الزرع.

كان عبد الملك بن مروان يحب ابنه الوليد، ولا يحثه على الأدب، فخرج لحاناً، فقال: أضرَّ حبنا بالوليد.

وإذا جاوز الصبي خمس سنين بانَ فهمه، وحسن اختياره لنفسه.

جاز عمر بن الخطاب رضي الله عنه على صبيان وهم يلعبون، فتفرقوا من هيبته، ولم يبرح ابن الزبير، فقال: ما لك لم تبرح؟ فقال: ما الطريق ضيقة فأوسعها لك، ولا لي ذنب فأخافه.

وقال الرشيد لولد وزيره، وهو في دارهم: أيما أحسن دارنا أو داركم؟ فقال: بل دارنا، قال: ولم؟ قال: لأن أمير المؤمنين فيها.

ويتبين فهم الصبي وعلو همته وتقصيرها، باختياراته لنفسه، فإن الصبيان تجتمع للعب، فيقول عالي الهمة: من يكون معي؟ ويقول قاصر الهمة: من أكون معه؟ ومتى علت همة الصبي آثر العلم.

وأما الموسم الثاني:

فهو الموسم الأعظم، الذي يقع فيه جهاد النفس والهوى وغلبة الشيطان.

وبصيانة هذا الموسم يحصل القرب من الله، وبالتفريط فيه يقع الخسران العظيم، وبالصبر فيه يُثنى على الصابر، كما أثنى الله عزّ وجلّ على يوسف.

وليعلم البالغ أنه من يوم بلوغه، قد نزل ملكان يصحبانه طول عمره، يكتبان عمله، ويعرضانه على الله، قال عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار].

قال محمد بن الفضل: منذ أربعين سنة، ما أمليت على كاتبيَّ سيئة، ولو فعلت ذلك لاستحيت منهما.

فلينظر العبد فيما يرفع من عمله، فإن زلَّ فليرفع الزلل بتوبة واستدراك.

وكان كثير من الأشياخ يناقشون أنفسهم على تضييع موسم الشباب، ويبكون على التفريط فيه.

فليطل القيام من سيقعد.

وليكثر الصيام من سيعجز.

فلينظر الشاب في أي موسم هو، فليس لمقامه مثل،

وليتلمح شرف بضاعته، وثمنها المستوفى بالصبر.

فليصم الشاب ليقال: ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ﴾[1].

وليحذر زلة في الشباب، فإنها كعيبٍ في سلعة مستحسنة. ومن زلَّ في الشباب فلينظر أين لذتها؟ وهل بقي إلا حسرتها الدائمة، التي كلما خطر ذكرها للقلب تألم، فصار ذكرها عقوبة.

ومن خرق ثوب التقى بيع بالخَلِقِ والمكسوم[2].

قال أبو القاسم الجنيد: لو أقبل مقبل على الله تعالى ألف سنة، ثم أعرض عنه لحظة، كان ما فاته في تلك اللحظة أكثر مما حصل له في تلك الألف سنة.

قال أبو الفرج: وقلت أنا في الوعظ:

أيها الشاب، أنت في بادية، ومعك جواهر نفيسة، تريد أن تقدم بها لأخذ الجزاء، فاحذر أن يلقاك غرار من الهوى، فيشتري ما معك بأدون الثمن، فتقدم البلد فترى الرابحين، فتفقع أسفاً وتبكي لهفاً، وتقول: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله، وهيهات أن يردَّ الأسف ما سلف.

---

(١) هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾ [الأنبياء].

(٢) المكسوم: المفتت، أي الذي لا قيمة له.

وأما الموسم الثالث: وهو حال الكهولة:

فهذا الزمان فيه بقية من الشباب، وللنفس فيه ميل إلى الشهوة، وفيه جهاد حسن، وإن كانت طاقات الشيب تزعج وترغب في جهاد اللهو.

وليكتف الكهل بنور الشيب الذي أضاء له سبيل الرحيل.

وأما الموسم الرابع: وهي الشيخوخة:

فقد يكون في أول الشيخوخة بغتة هوى، فيثاب الشيخ على قدر صبره، فكلما قوي الكبر ضعفت الشهوة.

وإذا تعمد الشيخ شهوة فكأنه مراغم، إذ الشهوة الطالبة قد خرست، ولهذا قال ﷺ: (أبغض الخلق إلى الله شيخ زان)[1].

ومنهم من كأنه يقصد الرغمة، فيلبس الشيخ خاتم الذهب، والويل لمن لم ينهه شيبه عن عيبه، وما ذاك إلا لخلل في إيمانه.

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وفي صحيح مسلم مرفوعاً: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر) [١٠٧].

وقد يقول الشيخ: علمي يدفع عني، أو لم يعلم أن علمه حجة عليه؟!

قال الفضيل: يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقال أبو الدرداء: ويل لمن لا يعلم ولا يعمل، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات.

وقال: أخوف ما أخاف، أن يقال لي: أعلمت أم جهلت؟ فإن قلت: علمت، لا تبقى آية آمرة أو زاجرة إلا أخذت بفريضتها، الآمرة: هل ائتمرت؟ والزاجرة: هل ازدجرت؟

وأما الموسم الخامس: وهو الهرم:

فابن الثمانين أسير الله في الأرض، ولم يُبْقِ زمنُ الهرم إلا تذكرة ما مضى، فليدرك ما فات بالاستغفار والدعاء وعمل ما يمكن من الخير، اغتناماً للساعات والتأهب للرحيل.

كان سري السقطي لا ينام إلا غلبة.

وقال رجل لعامر بن قيس يوماً: قف أكلمك، قال: أمسك لي الشمس حتى أكلمك.

ودخل قوم على عابد، فقالوا له: لعلنا شغلناك؟ قال: نعم، منعتموني من وردي.

ومن نظر في شرف العمر اغتنمه.

وفي الصحيح: (من قال: سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة)[1].

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الجنة قيعان، والملائكة يغرسون، وربما فتروا، فيقال لهم: ما لكم فترتم؟ فيقولون: فتر صاحبنا، فقال الحسن: أمدوهم رحمكم الله.

وقد رأينا جماعة من الأشياخ يرتاحون إلى حضور الناس عندهم، وسماع الأحاديث التي لا تنفع، فيمضي زمانهم في غير شيء، ولو فهموا، كانت تسبيحة أصلح، وهذا لا يكون إلا من الغفلة عن الآخرة، ألا ترى أن تسبيحة واحدة تحصل من الثواب على ما ذكرنا، والأحاديث الدنيوية تؤذي ولا تنفع.

كان أبو موسى الأشعري يصوم في الحر، فيقال له: أنت شيخ كبير، فيقول: إني أعده لشرٍ طويل.

وجاء بعض أصحاب السري يزوره، فوجد عنده جماعة، فقال له: يا سري، صرت مناخاً للبطالين، ثم

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٦٤، ٣٤٦٥).

ذهب ولم يقعد.

ومن عرف شرف العمر وقيمته، لم يفرط في لحظة منه.

فلينظر الشاب في حراسة بضاعته.

وليتحفظ الكهل بقدر استطاعته.

وليتزود الشيخ للحاق جماعته.

ولينظر الهرم أن يؤخذ من ساعته.

نفعنا الله ـ وإياكم ـ بعلومنا، ولا سلبنا وإياكم فهومنا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا، ولا يجعل علمنا حجة علينا، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والله أعلم.

تم الكتاب
والحمد لله رب العالمين

المُحْتَوىٰ